دليل الثقافة الإسلامية

الأستاذ رياض أدهمي

المحتوى

مقدمة.. ٣
الثقافة الإسلامية... ٦
خصائص الثقافة الإسلامية ٨
الثقافة الإسلامية عبر التاريخ ١٥
دليل الثقافة الإسلامية ٢١
العقيدة الإسلامية... ٢٢
تـفسـير الـقرآن الـكريم... ٢٧
الحديث النبوي الشريف... ٣٤
الشريعة والفقه الإسلامي.. ٣٨
الـصـوفـيـة ٤٥
الفكر الإسلامي الحديث ٤٨
العـلـوم التـطـبـيـقـية ٥٢
علوم النفس والاجتماع ٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين، وبعد:

في العالم الإسلامي اليوم صحوة، فقد بدأت مظاهر الحياة تدب في أوصال الأمة التي وصلت الى حالة تشبه الموت. لقد نجح الاعداء في دفع أجيال من الأمة بعيداً عن الإسلام، وأحكم الأعداء قبضتهم على كل شيء في واقع الأمة وثقافتها وفكرها ليدور في فلك بعيد عن هوية الأمة وانتمائها وتاريخها، وظن الأعداء أنه الموت المحقق لعدوهم التاريخي الأول... ولكن الله غالب على أمره فقد بدأ الناس في العالم الإسلامي يحسون الضياع والتيه. وانهارت أمامهم الدعوات والفلسفات التي زينتها الشياطين لتكون بديلاً عن الإسلام.

«واليوم يدور الزمن دورته ويبدأ الوجه الكالح للقرون الاخيرة في حياة المسلمين ينحسر ويبزغ فجر جديد للاسلام في ربوع الإسلام. بدأ الناس ــ والشباب المثقف خاصة ــ يعودون الى الإسلام، يريدونه رائقاً صافياً كما نزل أول مرة بلا غبش ولا ركام. وفي كل مكان من الارض التي حكمها الإسلام ذات يوم، حركات بعث إسلامي، ودعاة يدعون الى الإسلام، وشباب يتطلعون الى اليوم الذي يجدون فيه الإسلام مطبقا بالفعل. واليوم الذي يعود فيه المسلمون الى الاستخلاف والتمكين في الارض ــفي صورتهم الإسلامية الحقيقة المتميزةــ تحقيقاً لوعد الله: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) (من مقدمة «واقعنا المعاصر»، محمد قطب).

وقد أجمع الدعاة والعقلاء من هذه الأمة أن ما تحتاجه هذه الصحوة المباركة هو الترشيد والتوجيه حتى لا تصرف الجهود في غير طائل، ولا تستنفذ الطاقات في معارك مع الأشباح والأوهام.

وقد وجه الدعاة والمفكرون الإهتمام الى المشكلة الثقافية في حياة الأمة، فالتمزق الثقافي هو مكمن الداء، فلا بد من توجيه العناية للتخلص من آثار التخلف الثقافي والتضليل الفكري، فهما البيئة المناسبة التي تخدم الأعداء وهم يدفعون بالأمة الى التيه.

وقد كان من أهم علامات الصحوة الإسلامية المباركة الإندفاع الى القراءة للكتب الإسلامية وكتب التراث، فقد طبع كثير من كتب التراث وكتب عن الإسلام والمسلمين وعن العلوم الإسلامية الكثير الكثير، فالكتاب الإسلامي هو الاكثر مبيعاً والاكثر رواجاً في الاسواق، واجتمعت الشروط المناسبة للاكثار من الكتابة والقذف الى المكتبات فمنهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال. والمكتبة الإسلامية اليوم عامرة بآلاف الكتب في شتى العلوم والموضوعات، ويشعر المرء بالحيرة في اختيار ما يقتني واختيار ما يقرأ، فالمكتبة الإسلامية بتوسعها يضيق عنها عمر نوح ومال قارون، فلا بد من دليل يوجه في هذا الخضم الواسع حتى يلبي شباب الصحوة رغبتهم في التعرف على الإسلام على وضوح وبصيرة.

والدليل المقترح هو الذي يتعرف المرء من خلاله على المقدمات اللازمة لدراسة أي علم ابتداء من التعرف على الاهداف العملية والدور المنتظر لهذا العلم في بناء الشخصية الإسلامية المتوازنة، ولا بد بعد ذلك من الالمام بالظروف التاريخية لنشأة كل علم من العلوم وتطوره، وأثر هذه النشأة وهذا التاريخ على وجود بعض المشكلات ونقاط الخلاف.

فلا بد من دليل يقود الدارس للعلوم الإسلامية حتى لا يستغرق في ناحية جزئية أو مشكلة خلافية فينسى الصورة الكاملة ويفوته أن يعطي كل مشكلة حجمها الطبيعي، وقد يصرف الكثير من الجهود والاوقات فيما لا طائل تحته.

وأمر آخر لا بد من التنبيه عليه بالإضافة الى توفير الجهود والطاقات والأوقات وهو أن الدارس للعلوم الإسلامية بدون منهاج ودليل قد يُبتلى بمعض فقدان التوازن فتراه يترنح من فكرة جزئية الى أُخرى، يغضب حيث لا داعي للغضب، ويطمئن عند الخطر، ويفسد علاقة الاخوة لوهم عارض في ضرورة أمر أو أهميته، الى غير ذلك من أعراض فقدان التوازن.

والدليل الثقافي المقترح هو الذي يساعد شباب الأمة في توجههم الى التعرف على الإسلام والثقافة الإسلامية ليبنوا على ما قدمه الاوائل ويتخذوه منطلقاً لمتابعة البناء وسد الثغرات، لتكون الثقافة دليل عمل ومنهاج حركة بعيداً عن أن تكون المعرفة هي زاد جدل ومبرر كسل واجترار مواقف تاريخية خلافية وإحياء ما اندثر منها.

ونحن إذ نقترح هذا الدليل لضبط العملية التربوية وزيادة مردود الرحلة الثقافية لمن أراد أن يتوسع في التعرف على الإسلام وتاريخه وحضارته، لم نأت بدعة لم يعرفها أسلافنا رحمهم الله، فقد عقد العلامة ابن خلدون فصولا متعددة في مقدمته، اختصر فيها نشأة العلوم الإسلامية واهم مصنفاتها ومدارسها، واردف

ذلك كله بفصل بيّن فيه أن كثرة التآليف عائقة في تحصيل العلوم وأن كثرة الاختصارات مخلة بالتعليم، ثم عقد قصلا لبيان وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته.

والعلامة ابن خلدون في هذا كله يضع دليلاً لطالب العلم حتى لا تعيقه كثرة التآليف ولا كثرة الاختصارات، ووضع الخطوط العريضة للطريقة المثلى في استفادة العلوم. وما نقترحه اليوم لا يخرج عن ذلك، فالطباعة أخرجت الكتب عن الكثرة التي يشكو منها ابن خلدون الى كثرة تفوق الحصر. وأصبحت سهولة الطباعة والنشر آفة العصر، فإذا كان عصر ابن خلدون لا ينتشر فيه الكتاب إلا بتزكية الموثوقين من اهل العلم بشكل يحمل النساخ على كتابته وضبطه، فالعصر الحديث بمؤسساته مختلفة المشارب والاهداف والاغراض كلها تكتب عن الإسلام وعلوم وثقافة الإسلام، وكثير من هذه الكتب تحمل توجيهاً أو توجهاً فيه نصيب لا يمكن إهماله من التأثر بمعركة الإسلام مع التغريب من جهة ومع كل اشكال البعد عن التوازن من جهة اخرى.

فالحاجة الى الدليل الثقافي أشد حاجة وأكثر ضرورة عما كان عليه الامر في عصر ابن خلدون رحمه الله بل لعل العجب أن يتأخر ظهور مثل هذا الدليل على ضرورته، ولعلنا نوفق في وضع هذا الدليل على أسس مستفادة من سلفنا الصالح وأمة العلم، والله المستعان.

الثقافة الإسلامية

للثقافة الإسلامية معنيان: فالمعنى الاول هو كل ما كتب ونقل عن الإسلام كدين وعقيدة وتشريع وآداب. فالثقافة الإسلامية بهذا المعنى قد يطلق عليها اسم العلوم الشرعية أو العلوم الإسلامية الى غير ذلك من المعاني والالفاظ المتقاربة التي تعبر عن المعنى الخاص للثقافة الإسلامية.

والمعنى الثاني هو كل ما كتب ونقل عن الشعوب التي دخلت في الإسلام وامتزجت حياتها وعاداتها وعلومها وفنونها بعقيدة الإسلام وآدابه وشرائعه، فأنتجت حياة لها من النسبة الى الإسلام نصيب يقل أو يكثر، ولها من خصائصها الذاتية وإمكانياتها المحلية ما لوّن الحياة في مواطن هذه الشعوب بألوان خاصة.

ويتصل بالثقافة الإسلامية بمعناها الثاني ما يكتسبه المسلمون من مهارات أو صناعات وعلوم وهم يضربون في الارض يسعون في عمارتها أو وهم يقلبون النظر في أنحاء الكون يسخرونه ويستفيدون من موارده وطاقاته في معالجة حاجاتهم ومشكلاتهم. فالثقافة الإسلامية بهذا المعنى هي الحصيلة العملية والفكرية لتفاعل الانسان مع الحياة والكون بوجود العقيدة الإسلامية والانتماء الى الإسلام موجهاً ودافعاً وهوية. فالمعنى الثاني قد يكون موازياً للحديث عن حضارة الإسلام في كثير من المصنفات. ولعل ما يطلق عليه اصطلاح أسلمة العلوم هو محاولة للتفاعل مع المعنى الثاني للثقافة الإسلامية حيث يكون الإنتماء إلى الإسلام الهوية والاطار والدافع الذي يحرك المسلمين لفهم الواقع و التعامل معه و توظيف الرؤية الخاصة للاستفادة من الموارد والامكانيات.

وتجدر الاشارة هنا الى أن المعارف التي يمتلكها المسلم وهو يسير في الارض وينظر الى ملكوت الله في السموات والارض ويكتشف من سنن الله في الوجود وقوانينه في عالم الاسباب... كل هذه المعارف هي جزء مهم في تكوين الشخصية المسلمة المتوازنة التي تعيش عالم الواقع وتحاول أن تجد الحلول لمشكلاته وحاجاته من خلال الانتماء الى أمة الإسلام ومن خلال المعرفة بقوانين الكون وسنن الله في عالم الاسباب. وكذلك حين يسير المسلم في الارض ويتعرف على ما خلق الله من طباع وعادات وتقاليد وأعراف واهتمامات للشعوب والقبائل وتجمعات الناس المختلفة، فإن هذه المعرفة تعتبر ايضاً جزءاً مهماً من تكوين شخصية المسلم الذي يريد أن يقوم بدور الشهادة على الناس ويدعوهم من خلال معرفته بهم ومعرفته بما يؤثر بعقولهم وقلوبهم الى الإسلام، الرسالة الخاتمة.

إن المعرفة بالناس و معرفة سنن تفاعل الأمم و الشعوب وهو يطلق عليه اسم ــ العلوم الاجتماعية ــ أو تلك المعرفة بقوانين الكون ونواميس عالم الاسباب وهو ما يطلق عليه اسم ــ العلوم الطبيعية ــ تشكل جزءاً مهماً واساسياً من تشكيل العقل المسلم حيث يعتبر الدليل الثقافي ناقصاً إن لم تدخل هذه العلوم في الاعتبار.

إن إدخال العلوم الإجتماعية و الطبيعية ضمن الثقافة الإسلامية قد يُـظَنُّ فيه شيء من التوسع. ولكن إمعان النظر يدلنا على فصل الخطاب في هذه القضية. إن شمول الإسلام يدلنا على أن كل مجالات النشاط الانساني لا تخرج عن معنى العبادة لله والخضوع له إذا تناولها الانسان ومارسها بنية الخضوع لله والتزام أمره والوقوف عند نهيه أو التمتع بملاحظة معنى الإذن الالهي في ما أحل وأباح تناوله والاستمتاع به، وبهذه النظرة وبهذا التوجه تصبح حياة الانسان كلها عبادة لها روحيتها وشفافيتها وبهذه النظرة تصبح معارف الانسان كلها معارف إسلامية بمعنى أنها معارف عامة يشترك المسلم فيها مع غيره من الناس، إلا أن انتماءه الى الإسلام جعل لمعارفه عن الكون والحياة ودنيا الناس طعماً خاصاً من خلال الايمان بالله والانتماء الى امة الإسلام.

ولعل ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن ملاحظاته حول ترتيب الكائنات من البساطة الى التعقيد والتركيب يعتبر مفيداً جداً في بيان دور المقدمات الفكرية في تفسير الملاحظات العلمية. لقد كان للملاحظات العلمية عن تدرج المخلوقات طعماً خاصاً عند ابن خلدون العالم المسلم المنتمي الى أمة الإسلام بحيث يستغرب الناظر الى كلام ابن خلدون كيف وصل من ملاحظة التدرج الى إثبات الوحي والنبوة. وبالمقابل فإن ملاحظة التدرج عند الداروينية وُضعت في إطار تطوري مفضي إلى الإلحاد ونفي التدبير وإنكار وجود الله عز وجل.

والدليل الثقافي الذي نأمل أن يساهم في ترشيد الصحوة الإسلامية لا بد أن يشير الى المنهج العام الذي يتناول المسلم من خلاله معارف الكون والحياة ويسعى من خلال هذا المنهج للوصول بأمة الإسلام الى الكفاية والتفوق في كل الميادين.

خصائص الثقافة الإسلامية

لا بد للمطَّلع على الثقافة الإسلامية من الالمام ببعض خصائص هذه الثقافة حتى لا تشرد به فكرة مسبقة أو استعجال لاهث فيبتعد عن أساسيات وأصول. وقد يجنح الاستعجال بالمرء إذا مزج بالهوى المتبع والاعجاب بالرأي الى فكر غريب عن الإسلام وهديه تبدو عليه سيما الانفعال والارتكاس النزق لبعض الثغرات أو العيوب في بناء الأمة.

١ ـ ثقافة دينية: الثقافة الإسلامية «بمعناها الخاص» هي ثقافة دينية، بمعنى أن الإسلام هو دين ذو مصدر إلهي يتلقاه المرء من مصدره الموثوق بخشوع وخضوع واحترام تدفعه رغبة للالتزام بالهدى والتعرف عليه تديناً يطمع بالثواب والاجر من خلال معرفته ويحرص على الاكثار منه باعتباره طريقاً الى الجنة وسبيلا الى الرفعة بين المؤمنين في الدنيا والآخرة.

فالثقافة الإسلامية بهذا المعنى عبادة لها في نفوس المؤمنين قداسة واحترام وهم يتعاملون معها بجدية ليس فيها انتقائية الهوى أو مزاجية طالب المتعة. والثقافة الإسلامية عبادة لها شروطها وكيفيتها المحددة التي لا يجوز تجاوزها، وسيكون الخطأ والتلفيق وتأرجح الآراء والاهواء واضطرابها هو الحصاد المر لكل من ضاق بالشروط فتجاوزها ولكل من ضاق بالكيفية المحفوظة في تراث الأمة استعجالاً وتهوراً.

والشرط الذي يكفل سلامة الفهم في دين الله وسلامة التطبيق، هو أخذ العلم عن العلماء العاملين المشهود لهم بالعلم والعفة والالتزام تحقيقاً لقول الله تعالى (... اتبعوا من لا يسألكم اجراً وهم مهتدون).

ولعل من أهم ما يشير الى هذا المعنى الاساسي في تحصيل العلوم الإسلامية قول النبي صلى الله عليه و سلم: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبضه بقبض العلماء، حتى اذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا " «متفق عليه».

ويكاد يكون من الإطالة ذكر أهمية أخذ العلم عن أهله، فهم أقدر على البدء بالمهم والبعد عن مشكلات التشابه والتعقيد، والأخذ بيد المتعلم خطوة خطوة على طريق التحصيل حتى تنشأ الملكة وتنمو موهبة الفهم والادراك وتعرف أهم المزالق والمنعطفات في الطريق فيستطيع المرء بعدها أن يتابع رحلته العلمية في الكتب والمؤلفات والمصنفات بعد أن اخذ نصيبه من الفهم لمصطلحات العلم ورؤوس المسائل ومفاتيح حل المشكلات.

وقد نقل الشاطبي قاعدة مفيدة في هذا المعنى فقال: «كان العلم في صدور الرجال ثم انتقل الى الكتب ومفاتحه بأيدي الرجال، والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئاً دون فتح العلماء».

ولعل المعنى التربوي في الأخذ مشافهة عن العلماء هو الأولى بالاعتبار والاهتمام، فالتطبيق العملي ووضع كل فكرة في حجمها الطبيعي من بناء الشخصية المسلمة المتوازنة هو الأهم من الفهم الدقيق لجزئيات المسائل وآحاد الاحكام. وقد دلَّل الامام الشاطبي على ذلك فقال: «وحسبك من صحة هذه القاعدة أنك لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأخذ عنه إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك. وقلما وجدت فرقة زائفة ولا أحد مخالف للسنة إلا وهو مفارق لهذا الوصف..... فلما ترك هذا الوصف رفعت البدع رؤوسها. لأن ترك الإقتداء دليل على أمر حدث عند التارك أصله اتباع الهوى».

والامر الآخر الذي لا بد من مراعاته في تلقي الثقافة الإسلامية يتعلق بتصور الدارس لدور العقل الانساني والفكر البشري في هذه الثقافة. إن الإسلام هو دين الله أنزله رحمة مهداة لينقذ الناس مما هم فيه من ضعف بشري وهوى وقصور واستعجال، والمؤمن يتلقى توجيهات ربه بالتسليم والقبول والرضى مطمئنا الى أن الله تعالى هو العليم الخبير وانه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، لا يحكم إلا بالحق والعدل ولا يقضي إلا بمصلحة وان خفيت على الافهام. والعقل البشري هبة الله ونعمته ركز فيه قواعد للفهم وأساسيات الاحكام يستعملها الانسان بهداية الله لفهم الكون و التلقي عن الوحي بتوازن و اعتدال . فالكون هو كتاب الله المفتوح بث فيه سبحانه نواميسه و سننه ، و الوحي هو كتاب الله المقروء أثبت فيه سبحانه أصول الأحكام و أصول العقائد ، فلا تعارض و لا تناقض بل هو التكامل و الإنسجام. فإذا أسلم العبد قياده لتوجيهات ربه اقتصر دوره بعدها على التلقي والفهم والإدراك للشريعة ومقاصدها، ثم التكيف والتطبيق في واقع الحياة بعد أن كان فهم الكون و سننه و نواميسه وقوانين حركة المجتمعات و سنن تدافعها خير معين على التنزيل الواقعي الصحيح للأحكام و المقاصد.

وهنا لا بد من التنبيه على فرق دقيق في الاوامر الشرعية، فما كان من الأمور الشرعية متعلقاً بالعبادات فالأصل في العبادات والعقائد الوقوف عند معنى التعبد والخضوع لله دون زيادة أو توسع

وما كان من الأوامر الشرعية في العادات ـــ وهي مصطلح يعبر به العلماء عن تنظيم مصالح الدنيا وعمارة الكون وحاجات الانسان الضرورية ـــ فالاصل في تلك الامور الالتفات الى المعاني والمصالح.

وقد فصّل علماء الشريعة في هذا الامر ووضعوا قواعداً لمعرفة علل الاحكام وحكمة التشريعات وطريقة استنتاج الاحكام، ولكن الذي يهم المبتدىء والمطّلع على الثقافة الإسلامية أن يعلم أن المضي مع أحكام

العقول وما تحكم به ببادىء الرأي، أمر ينطوي على خطر محقق إذا تناول العقل أوامر الشرع ذات المعنى التعبدي الواضح بالتحليل والاستنتاج والترجيح مندفعا لاعتياد في نظام أو مؤسسة ثقافية أخرى الى اعتبار العقل حكماً في أمور خارجة عن نطاقه ودوره وحدوده.

إن الذي يستشعر نعمة الله عليه بالانتقال من الجاهلية الى الإسلام عليه أن يتفقد همَّه وما يشغله ليكون هو التكيف مع منهج الله وشرعه، والحذر من مخالفته، والتحرج من كل ما ألفه المرء واعتاده بعيداً عن الالتزام والانضباط بأوامر الشريعة والمهم في الامر أن يظل المطلع على الثقافة الإسلامية في موقف الحذر من الاستعجال في الحديث عن الشريعة والاوامر والنواهي والحِكم والعلل ما لم يكن الامر نقلا أميناً من مصدر ثقة، وفهماً دقيقاً لمدلول الكلام ومجاله ومناسبته.

٢ ــ ثقافة عربية: الثقافة الإسلامية ــ بمعناها الخاص ــ ثقافة عربية، فقد نزل القرآن الكريم ــ وهو أساس الثقافة الإسلامية وعمدتها ــ بلسان العرب، فلا بد لفهم القرآن الكريم وفهم الشريعة النابعة منه من فهم لغة العرب وأساليبهم في البيان والتعبير عن المعاني. وغني عن البيان أن ما نزل به القرآن الكريم وكان حجة على الناس ودليل صدق محمد وشرعه الظاهر الى يوم القيامة هو ما فهمته العرب من ألفاظ القرآن وبيانه. وقد قرر الامام الشاطبي هذا المعنى في الموافقات فقال: «لا يستقيم للمتكلم في كتاب الله أو سنة رسول الله أن يتكلف فيهما فوق ما يسع لسان العرب، وليكن شأنه الاعتناء بما شأنه أن تعتني العرب به والوقوف عند ما حدته». و يقرر في موضع آخر « واذا كانت الشريعة عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم.. ».

ومعرفة هذه الخصيصة المهمة للثقافة الإسلامية على هذا النحو الذي بسطه الامام الشاطبي يفسر لنا انتشار واستقرار العربية في البلاد التي دخلها المسلمون، ويفسر لنا ايضا احتفال الائمة والعلماء بذكر أخبار العرب وأشعارهم وطرائفهم، وتدريس ذلك في المساجد وحلقات العلم، وفي هذه الاخبار ما يند عن الادب أحيانا وما لا يليق بمجالس العلم، وما كان أئمة السلف ليترخصوا في ذلك لولا انهم اعتبروا الامر ديناً، وإن كتب الأدب واخبار العرب لا بد من الصبر على ما فيها من غث وسمين لانها الباب لفهم الشريعة ومصادرها في الكتاب والسنة.

ومعرفة العربية كأحد خصائص الثقافة الإسلامية خير معين على إنماء شعور الولاء لامة الإسلام وإمكانية التواصل مع انتاجها الفكري والعلمي عبر العصور. فالتراث الثقافي والحضاري والمعماري والعسكري كله تنقله إلينا كتب دونت بلغة عربية فصيحة عريقة، ويكاد يكون من غير الممكن تنمية الشعور بالولاء والمودة والاعتزاز للأمة التي أنتجت هذا التراث بدون الإتقان للغتها وتذوق أساليب بيانها وتعبيرها.

والمتتبع لنهضة ونشاط الثقافة الإسلامية وإقبال الناس عليها سيجد أن هناك تلازماً واضحاً بين معالم نشاط الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي وبين اهتمام الأمة باللغة العربية وتذوقها والحرص على استعمالها واتقان التعبير بها عن كل معنى جديد في الثقافة والعلوم والمدنية. وبالعكس فان الاهتمام بالعربية مقطوعة ومبتورة عن الثقافة الإسلامية والاهتمام بها وتبنيها هوية وانتماء، لم يزد الأمة إلا بعداً عن العربية وضيقاً بها وتبرماً، وسخرية مصبوبة عليها وعلى العاملين في حقل تعليمها وتدريسها.

وعند ذكر هذه الخصيصة المميزة للثقافة الإسلامية لا بد أن نذكر ما قال الأئمة في موضوع ترجمة القرآن الكريم، وأن هذا مستحيل على الوجه الذي يستوعب جميع الإشارات القرآنية في طريقته الخاصة لعرض المعاني والذي اصبح بها معجزاً.

ونزيد هنا أن ما يصح به الإيمان وما يلزم الناس من الإيمان بعمومات الشريعة وأحكامها العملية يجزىء به الترجمة الى أية لغة. وذلك واضح لان الله تعالى ارسل رسوله محمداً الى الناس كافة، بل إن الترجمة للمعاني والاحكام والآداب لتنتقل الى مرتبة الواجب قياماً بواجب الدعوة والتبليغ والبيان... (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم). ولكن إدراك أسرار اللغة ودقائقها وما ينعكس ذلك على التعمق في فهم الشريعة واستنباط الأحكام من النصوص لا يمكن إلا مع تعلم العربية وإتقانها ـــ كما أسلفنا ـــ ولهذا فإن ترجمة أمهات كتب الثقافة الإسلامية مما لا يحتاجها إلا العلماء في سعيهم لاستنباط الاحكام أو للاستدلال عليها أو الترجيح بين الآراء ووجهات النظر... إن ترجمة مثل هذ الكتب يعتبر مضيعة للوقت والجهد، بالإضافة الى ما فيه من غفلة عن كون الشريعة عربية وما يتبع ذلك من نتائج. فمن المفروض أن من وصل في العلم الى منزلة الاستفادة من هذه الامهات وجب عليه تعلم العربية واتقانها لتمكن الفائدة. و وجود الترجمة يخيل لذوي الكسل والبطالة أن الاستنباط واستنتاج الاحكام ممكن من الاطلاع على ترجمات لا ندري حرفت ام أخطأت، ووزنت أم جزفت، ولا ندري كيف نقلت معاني الخاص والعام وكيف فعلت باحتمالات المجاز والكناية وغير ذلك من فنون المعاني وطريقة العرب في التعبير عنها.

٣ ـــ ثقافة متوازنة: الثقافة الإسلامية ثقافة متوازنة بمعنى أن الإسلام قد اهتم بجميع المكونات الفطرية للحياة الانسانية وأعطى كل ناحية من أشواق الانسان وحاجاته نصيبه وسهمه باعتدال لا يجنح بالحياة الى جانب دون جانب أو الى حاجة على حساب حاجة أخرى، فالله سبحانه وتعالى حكيم عليم خبير يعلم ما خلق ويضع من الشرائع والاوامر والنواهي والآداب ما يكفل تلبية الاشواق الفطرية والحاجات الطبيعية للانسان بيسر وسهولة بعيداً عن الحرج والعنت والمشقة.

والتوازن في الثقافة الإسلامية يمثله القول الجامع البليغ لرسول الله " أعط كل ذي حق حقه» فلا يقع الانسان بحالة من الاستغراق_ النفسي أو العملي_ في ناحية مهما عظم خطرها وظهرت أهميتها بشكل ينسيه واجباته ومسؤولياته في نواح أخرى.

وحالة الاستغراق أو الذهول أمر لا ينكر ولا يستهجن اذا كان في إطار الاختصاص والتكامل بين المسلمين لتحقيق الكفاية في كل المجالات باتقان يؤكد الاعتزاز والانتماء الى أمة الإسلام، ويرفع الوهن العملي عن الأمة بقيامها بجميع وظائفها الحيوية وحاجاتها الاساسية. ولكن هذا الاستغراق أو الذهول يصبح مرضاً قاتلا وظاهرة يجب التصدي لها ومعالجتها إذا رافقها الاعتراض والانكار أو الزراية والانتقاص لمن لا يحمل هذا الرأي أو يتوجه هذا التوجه أو ذاك بحيث تنعدم القدرة على التعاون والتكامل وتنقطع أواصر الأخوة بسوء الظن والإنكار والاعتراض.

وقد يكون من أسباب البعد عن التوازن رغبة مخلصة في معالجة عيب أو تدارك ثغرة من الثغرات الفكرية أو العملية في كيان الأمة، وقد تحمل هذه الرغبة صاحبها الى التأكيد على الجانب الآخر للعيب الذي يعالجه أو الثغرة التي تلمسها في بناء الأمة، ثم يتطور الامر وتأتي خلوف تبتعد عن تذوق الملابسات التاريخية للتأكيد على الجانب الآخر وتنشأ مدرسة خاصة تؤكد على النتائج وتنسى العوامل التي حملت على التأكيد على هذه النتائج، ويصل الامر الى صورة مشوهة ممسوخة لا تحمل من مبررات الوجود إلا الحزبية والحرص على الاستكثار من الاتباع والمريدين.

ومن أهم ما يحمل الناس على الاستغراق في ناحية من نواحي الإسلام والاقتصار عليها والانكار على من لم يشارك فيها أو خالف في تقدير اهميتها... إن أهم ما يحمل الناس على الإستغراق والبعد عن التوازن، القراءة الإنتقائية التي تضع سلفا بعض المقررات المسبقة أو المفاهيم الجاهزة أو الأحكام التي قد فرغ منها، شرطاً للقبول أو الرفض أو إمكانية التأويل أو التقييد والتخصيص وما شابه ذلك. وبذلك يصبح كثير من النصوص أو الوقائع والاحداث بحكم المهمل. وتكون النتيجة العملية لهذه الطريقة الانتقائية في التعامل مع الثقافة الإسلامية أن تختفي من حياة الناس أقسام من تعاليم الإسلام وتوجيهاته لضبط الحياة بكل ما تحويه من تنويع وضبط وشمول، ويبتعد المسلمون عن التمثيل الصحيح للاسلام الشامل لجميع نواحي الحياة بتوازن واعتدال.

والبعد عن التوازن حالة عقلية ونفسية تدعو للقلق وتمنع من التعاون وتحرم من الاستفادة من الامكانيات المتوفرة. ولتوضيح ذلك نضرب مثالا بآلة من الآلات تدور حول محورها ثم انتقل محور الدوران لعطل طارىء، فلا تلبث هذه الآلة أن تهتز بعنف نتيجة انتقال مركز الدوران عن المحور الاصلي، ولا تلبث هذه

الاهتزازات والارتجاجات أن تزيد في العطل الاصلي بما يعود على الاهتزازات بالتقوية... وهكذا حتى تحدث شروخ خطيرة في جسم الآلة وفي نقاط اتصالها وتثبيتها. وليس هناك من حل إلا بإيقاف التعامل مع هذه الآلة والامتناع عن تشغيلها، ثم معالجة العيب الاساسي في تركيبها بإعادة محور الدوران الى وضعه الأصلي، وإصلاح العيوب الطارئة في جسم الآلة ومواضع تثبيتها وبعدها تمكن الاستفادة من الطاقة الهائلة التي تنتجها الآلة دون أن نخشى أذى أو خطراً من التعامل.

ولعل من أهم وسائل اكتساب الشخصية المتوازنة ـــ والتي يجب أن تكون الهدف العملي للمربين والعاملين في حقل الفكر والتوجيه ـــ أن يحرص المرء على اكتساب الحد الأدنى من كل علم وفن أو مجال من مجالات الثقافة الإسلامية قبل أن يقرأ ما يمكن اعتباره خطوة تخصصية في احد مجالات هذه الثقافة، فيتم النمو الفكري والثقافي بشكل متوازن لا يحمل على تضخيم جانب مع إهمال جوانب اخرى وبشكل يدرك فيه المرء دور كل فن وعلم من العلوم الإسلامية في بناء عقله ومداركه وحسه الإسلامي.

ونرجو أن يكون ـــ دليل الثقافة الإسلامية ـــ هو معين عملي للمربين والدارسين للوصول الى شخصية متوازنة تتفهم شمول الإسلام وتضعه موضع التطبيق باعتدال وتوازن.

٤ ـــ ثقافة واقعية: الثقافة الإسلامية ثقافة واقعية بمعنى انها ثقافة عملية تتوجه الى الواقع لتغير فيه أو تعدل، أو تساهم في مسيرة الخير ولتضع العقل والقلب والجوارح على سنن الرشاد والاستقامة.

فالثقافة الإسلامية تتوجه الى الواقع ليستقيم الفكر بموازين العلم والحق بعيداً عن الظن والهوى، وليستقيم القلب على الايمان ومشاعر الايمان، ولتستقيم الجوارح فلا يصدر منها الا ما انضبط بمقياس الشريعة والعقيدة.

وأما الكلام النظري الذي يحلِّق في الفراغ ولا يرجع بشيء ذي قيمة على انضباط العقل والقلب والجوارح فليس له قيمة ولا وزن وهو العلم الذي استعاذ منه النبي صلى الله عليه و سلم. وقد قدَّم الإمام الشاطبي لكتابه «الموافقات» بمقدمات مهمة كان من جملتها قوله: «كل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي» وقال في اثناء شرحه لهذه القاعدة: العلم المعتبر شرعاً ـــ أعني الذي مدح الله ورسوله أهله على الاطلاق ـــ هو العلم الباعث على العمل».

ولا بد من الاشارة هنا الى أن العمل لا ينحصر بالجوارح، فعمل القلب وما ينعقد عليه من الاعتقاد والمشاعر هو الاهم والاولى بالمراعاة والعناية. «أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله» «ولا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». فالعلم الذي يغير مقاييس العقل والقلب، فتلفح القلب

حرارة محبة الحق والشوق لرؤيته واقعاً حياً في الناس، وتنطلق به الجوارح لا تملك رداً لسائق الحب في القلب وحادي الصواب في العقل. هذا العلم بهذا الاثر وبهذه النتائج هو الثقافة المطلوبة المرغوبة التي يجب على طالبها أن يتلمس آثارها في عقله وقلبه وجوارحه. فإن عدمت هذه الآثار فهي السفسطة والفراغ والبطالة.. شأن المختلفين في اسم ولون كلب أصحاب الكهف.

والثقافة الإسلامية ثقافة واقعية بمعنى آخر أيضاً، وهو معنى يتصل بمعنى الشمول في شريعة الله الصالحة والمصلحة لكل زمان ومكان الى أن يرث الله الارض ومن عليها. إنه لا يجوز بحال إغفال جانب واقعي من مشكلة نعالجها أو نتصدى لحلها لمجرد كون ذلك الجانب ذا قيمة ثانوية أو غير مهم أصلا في نظر من يتصدى للمشكلة أو يعالج قضايا الناس باسم الإسلام.

الإسلام حين جاء الى البشرية اخذ بيدها من واقعها الذي كانت تعيشه، و لم يتجاهل كل عوامل الضعف والقصور في واقعها وفي جبلتها عندما خاطبها لترتقي الى القمة السامقة. (وخُلق الانسان ضعيفا) (وعلم أن فيكم ضعفا) (وكان الانسان عجولا) (كُتب عليكم القتال وهو كره لكم) (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) (وفيكم سمّاعون لهم).

إن التصدي للمشكلات الواقعية في حياة الناس أمر لا يستقيم لمن أراد أن يفصل جزءاً من الواقع ويتجاهله ويبني أحكامه على جزء من الحقيقة ــ على طريقة أصحاب التفسير المادي للتاريخ ــ.

أن معالجة المشكلات بهذا الشكل لا تنتج إلا احكاماً سقيمة وغير عملية، وأسوأ ما فيها أنها صد عن سبيل الله وتشويه لوجه الإسلام السمح الكامل المتوازن. وفرق كبير بين إقرار الواقع إذا كان سيئاً واتخاذه مقياساً ومرجعاً للقبول أو الرفض... وبين الاستناد الى الواقع للتعرف عليه ومعرفة مركباته ومكوناته، ثم البدأ برحلة التغيير والتطوير بيسر ورفق ودأب والتزام بسنن الله في التغيير. وواضح أن اشتراط المعرفة الدقيقة بأحوال الزمان ومشكلات الناس في كل من يتصدى للاجتهاد واستنباط الاحكام، هو تطبيق عملي لفكرة الواقعية في الثقافة الإسلامية حتى لا تستبعد اجزاء من الواقع لضرورات نظرية مدّعاة، تريد أن تدفع الى رأي جاهز وفكرة مسبقة مهما كان الواقع الحي معاكساً في دلالالته وايحاءاته.

الثقافة الإسلامية عبر التاريخ

أنزل الله تبارك وتعالى دينه القيم فارتفع به جيل الصحابة الكرام رفعة ما عهدتها البشرية من قبل، وكان المجتمع الذي ربَّاه النبي على حداء التوجيهات القرآنية المتنزلة لتأخذ بيد هذا الجيل المبارك خطوة خطوة في معارج الكمال الانساني. كان هذا المجتمع صفوة الخلق بشهادة رب العالمين (كنتم خير امة اخرجت للناس).

وانساح هذا الجيل الفريد في الارض ودخل الناس في دين الله أفواجاً ونقلهم الإسلام الى آفاق عالية من الرفعة والسمو بالقدر الذي استطاعوه من تمثل معاني وآفاق الدين الجديد، وبالقدر الذي سنح لهم من معايشة من رباهم الرسول على يديه فتلقوا وعاينوا من نور النبوة ما شاء الله.

وبدأ الناس يهبطون عن مستوى الذروة الرفيعة السامقة التي استطاعها الجيل الاول ببركة الصحبة وبركة تنزل الوحي، وبدأ الهبوط قليلا يسيراً لا يخرج الناس عن تمثل حقيقة الإسلام وروحه، ولا يخرج الأمة عن كونها خير أمة، ولكن هذا الخير كان في تناقص «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

واستمر الهبوط حتى وصلت الأمة لتصبح غثاء متخلفا عن حقيقة الإسلام. وكان المسلمون في رحلتهم الطويلة من القمة الى التيه يكتبون ويسجلون في كل مجالات المعرفة والمكتبة الإسلامية عامرة بآلاف المجلدات والكتب، فهل انعكس تخلف المسلمين العملي عن تحقيق وتمثيل الإسلام ـــ كما عرفه وطبقه خير القرون ـــ على ما كتبوه؟ والى أي حد يمكن اعتبار ما نقل من العلوم في فترة الرحلة ما بين القمة الى التيه الحاضر تعبيراً أميناً عن الفهم الصحيح للاسلام ومقتضياته العملية.

والاجابة على هذه التساؤلات لها أهميتها البالغة حتى يكون المطلع على الثقافة الإسلامية على بينة من أمره، فلا يبالغ في تقدير تأثير الواقع على الفكر والانتاج الثقافي، وكذلك لا يبالغ في تجاهل هذا التأثير، ولهذا لا بد من ذكر بعض المقدمات الضرورية التي يجب استصحابها أثناء التعرف على الثقافة الإسلامية لمعرفة التفاعل ـــ عبر التاريخ ـــ بين الواقع العملي وما أنتجه المسلمون في شتى ميادين العلوم والمعرفة والفنون.

والمقدمة الأولى التي يجب فهمها واستصحابها، أن الأصول النظرية والمثل التطبيقي العملي (القرآن الكريم وسنة النبي الكريم وسيرته) محفوظة بحفظ الله تبارك وتعالى كما وعد في كتابه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وكما أخبر النبي بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرُّهم من خالفهم الى

يوم القيامة». فالاصول المحفوظة عن التحريف والتشويه والطائفة الملازمة للحق تجعل مهمة الاحياء للدين والعودة الى الإسلام ممكنة في أي جيل.

- لقد كان الإسلام _بعقائده ومبادئه وشرائعه وقيمه وآدابه_ هو المثل الأعلى والقيمة السائدة والمشروعية العليا في جميع مجتمعات المسلمين منذ أن اكرم الله البشرية بالإسلام وعبر الرحلة الطويلة من القمة الى التيه. فلم يحدث أن ارتضى المسلمون ــ مهما كان واقعهم مغرقاً في الفساد ــ مثلا أعلى أو مبدءاً آخر غير دين الله. فالخطأ والصواب والحرام والحلال والواجب والممنوع، وغير ذلك من المقاييس القانونية والأخلاقية لم تتغير وظلت هي هي كما تركها النبي صلى الله عليه و سلم .

«لقد بقي لمجموع الأمة ــ ودع عنك الحكام ــ صدق إيمانها وجدية الاخذ من الكتاب والسنة وصدق الجهاد في سبيل الله، وبقيت ــ في مجموعها ــ تتعامل بأخلاقيات ــ لا إله إلا الله ــ وبقي لها وفاؤها بالمواثيق، وفي العموم بقيت روح الإسلام هي السارية في الأمة السائدة فيها وان كان قد غشيها من انحراف الحكام غاشية في بعض معاني الإسلام» (*واقعنا المعاصر، محمد قطب*).

- في أعقاب الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان بدأ التغير في القاعدة السياسية للمجتمع الإسلامي، ووصل الأمر بعد قرن من الثورات والحروب الداخلية إلى أن انكفأ العلماء _أصحاب الفكر والإلتزام_ على أنفسهم بعيداً عن القيادة السياسية التي لم تنقطع محاولاتها في إخضاع العلماء لمآربها. وقد شكل هذا الفصام والتوتر بين القيادة الفكرية والسياسية خلفية ثقافية في هذه الأمة أدت إلى نتائج بالغة الأهمية:

فمن جهة أدى عزل القيادة الفكرية عن المسؤلية الإجتماعية والممارسة العملية إلى نوع من التخلف العملي والنظري لدى العلماء حرمهم من الإتصال الفعال بمراكز صنع القرار السياسي والتوجيه العملي للأمة وكل ما يعكسه هذا الوضع على المقدرة الذكية على تنزيل الأحكام الشرعية على الواقع، واستغرق الجهد في فهم النصوص بمنهج لغوي للحيلولة دون استخدام السلطان وأتباعه للنصوص كأداة لتأصيل انحرافاتهم العملية.

ومن جهة أخرى أدى هذا الفصام إلى جهل القيادة السياسية وحرمانها من وجود قاعدة فكرية تخدمها وتواكب معها المتغيرات وتمدها بالفكر والسياسات والبداءل.

والناظر في التاريخ الإسلامي يعجب للقدرة الهائلة للعلماء في توحيد صفوف الأمة في ساعات الخطر الأجنبي، حتى إذا تمكنت القيادة السياسية من قطف ثمرات هذه الوحدة والإلتحام للأمة حول قيادتها الفكرية والسياسية، رجع التوتر والفصام بين القيادتين، وهذا هو الذي يفسر عجز

المحن في الثقافة الإسلامية عن أن تكون شرارة تقدم مادي وتطوير حضاري، الأمر الذي أدى إلى الفتنة الجديدة بالحضارة الغربية؛و أدى إلى أن الأمة جميعاً بقيادتها الفكرية والسياسية في غفلة عن معنى الشهود الحضاري ومعنى تحقيق الكفاية في كل مجالاتها.

- وكان العلماء العاملون _عبر الرحلة الطويلة بين القمة والتيه_ يشدون الأمة الى القمة ويعبرون عن المثل الأعلى الذي يجب على الأمة اتباعه، تحقيقاً لوعد رسول الله : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

تخلف المسلمون عبر العصور عن تحقيق بعض معاني الإسلام ـــ وخاصة في سياسة الحكم والمال ـــ ولكن الطائفة الظاهرة على الحق من هذه الأمة والعلماء العدول كانت تتمتع باستقلال واضح، فالمؤسسات العلمية بأوقافها وعلمائها وتقاليدها لم تكن تخضع لسلطان القصور خضوعاً يفرض عليهم رأياً علمياً أو وجهة نظر تبرر أو تلبس ما عليه السلطان من انحراف. وإذا حدث أن انجرف بعض العلماء وتورطوا في تقرير ما يرضي السلطان أو يعفيهم من بطشه، انبرى العلماء لتفنيد ونقد الآراء الشاذة بما لا يدع مجالا للشك في حقيقة هذه الآراء وما تمثله من الحق الذي وعد الله بحفظه الى قيام الساعة.

- كان العلماء في محاولتهم لشد الأمة الى قمة الجيل الاول يعبرون عن معان يأخذونها عمن سلفهم، وعندما كانت الأمة في ذهول عن أسباب القوة والتمكين، كان العلماء جزءاً من الأمة يشاركون الأمة غفلتها وذهولها عن فهم بعض المعاني الضرورية والتي رأينا نتائج إهمالها بعد أن مضت القرون المتطاولة، وتراجعت الأمة عن تحقيق الكفاية والتفوق في كثير من ميادين المعرفة النظرية والعملية. وبشكل أوضح قد يغفل العلماء عن تقرير معنى ضروري من أمر المسلمين في الدنيا، ولكنهم في تقرير ما قرروه ما ذكروا إلا ما أجمعوا عليه من أمر الدين، فهم يشاركون الأمة في الغفلة عن بعض المعاني الضرورية ـــ وخاصة أمور عمارة الارض وتحقيق الكفاية و مقدمات التمكين ـــ ولكنهم في أمر الدين و المرجعية الحاكمة لا يتواطئون على تسجيل خطأ ولا يسكتون عليه . لذلك لا بد من مراجعة جادة لفكر العلماء وآثارهم لنرى ما كانت عليه الأمة في زمانهم وكيف انعكس واقع الأمة أو تخلفها عن تحقيق الكفاية على فكرهم وتراثهم.
- اقتسمت العلماء في كل ما انتجوه وسجلوه مدارس فكرية ومذاهب في الرأي والاستنتاج والاستنباط، وذلك في كل فرع من فروع المعرفة ـــ وكانت هذه المدارس دليل تنوع وخصوبة

ومرونة في الشريعة الخاتمة التي أنزلها الله سبحانه مستوعبة بمرونتها وشمولها لحاجات الانسانية على اختلاف البيئات والازمنة والعصور. ولكن هذا التنوع وهذه المرونة لم تخل من اعراض جانبية مؤذية حيناً وقاتلة في أحيان اخرى. لقد دخلت آفة التعصب والحزبية على اتباع هذه المدارس الفكرية من أنصاف العلماء والعوام فأفسدت هذه الحزبية جو الأخوة والمودة والتعاطف والتراحم الواجب بين اخوة الايمان . وما على المطلع على الثقافة الإسلامية إلا أن يعتصم بحسن الظن للائمة العلماء، ولا يضيق بالاختلاف في وجهات النظر، فالله سبحانه وتعالى ضمن الاجر والقبول لكل من عمل بما أداه اليه اجتهاده، ولكل من اتبع رأي من استفتاه من أهل الذكر. والمؤمن في هذا مبتلي بالاختلاف الطبيعي المركوز في جبلة الناس وعقولهم وامكانياتهم، ليعلم الله سبحانه من لا يخرجه الاختلاف في الرأي عن الحب في الله وما وجب عليه لاخوته في الايمان، وليرى الله من عباده من يتجاوز الحد ويفجر في الخصومة ويخرجه الاختلاف في الرأي عن اجواء المودة والرحمة والتعاطف.

وقد يضيق بعض الناس بمن أخرجه الاختلاف عن الاعتدال والانصاف فيحاول إلغاء الخلاف وإلزام الناس رأياً واحداً يزعم له الافضلية ويزعم له القدرة على إزالة الاختلاف. ولعل المضي مع هذا الوهم ينطوي على مخاطر اكبر واشنع مما انتهت اليه حال من لازم جترار الخلاف. فأوصلهم الى القطيعة والتفرق.

- كانت المدارس الفكرية ومذاهب الاستنباط والاستنتاج تنحصر اختلافات آرائها في فروع الشريعة وأحكامها العملية، أما الأصول الاعتقادية والصبغة الأخلاقية العملية التي تميز المسلم، فقد كانت الأمة ترجع فيها الى طريقة واحدة وتصور واحد كان العلماء والائمة يطلقون على من التزمها «أهل السنة والجماعة».

وقد شذ عن جماعة الأمة وأصولها وأحكامها الاعتقادية فرق كثيرة خرجت على إجماع الأمة في مسائل الاعتقاد بآراء شاذة وعقائد فاسدة حملهم عليها أسباب سياسية أحيانا ، أو استعارة مناهج تفكير غريبة عن فكر الأمة وتراثها والمنقول عن سلفها أحياناً أخرى . وقد اعتبرت الأمة هذه الفرق نشازاً في جسمها، واعتبرت آراءها شذوذات عن النهج الواضح الذي يمثله فكر جماعة المسلمين، وهو المصطلح الذي يعبر عن مجموع العقائد والأحكام العملية المجمع عليها والتي تمثل ما كان عليه رسول الله وصحبه الكرام. والمطلع على الثقافة الإسلامية لا بد له أن يحدد هوية من يقرأ له ليكون على بينة من أمره فلا يتورط في شذوذات ومخالفات عن فكر الأمة وما اجمعت عليه في أمور عقيدتها وعبادتها وأخلاقها.

- في العصر الحديث وفي أعقاب الغزو الصليبي الجديد على العالم الإسلامي والذي مهد لسقوط الخلافة الإسلامية وأجهز على النظام التعليمي عند المسلمين. في هذا العصر بدأت موجة التغريب يقدمها المنهزمون المبهورون، وبدأ سيل الكتابات عن الإسلام بروح الهزيمة والإنبهار بالغرب من أشباه علماء ومتحدثين عن الإسلام بحماس لا وعي معه، وبخبث وكيد في بعض الاحيان. والذي يميز هؤلاء المنهزمون المبهورون انهم اعتبروا ثقافة الحضارة الغالبة المتفوقة حقائق نهائية حاكمة، فحاولوا بالاعتذار حيناً وبالتأويل والتخصيص حيناً أو بمناقشة ثبوت بعض القيم والاحكام أحيانا أن يثبتوا التوافق أو عدم التصادم بين الإسلام وعناصر الثقافة الغربية. وحاولت طائفة اخرى من دعاة التغريب إضفاء صفة الشرعية والإسلامية على نتاج الحضارة الغربية في السياسة والاقتصاد والاجتماع في محاولة لدعم الوجود الثقافي الغربي والتلبيس أن هذا الوجود لا يتنافى مع هويتهم الإسلامية وانتمائهم الى حضارة الإسلام. والمطلع على الثقافة الإسلامية عليه أن يتأنى كثيرا عندما يقرأ انتاج من يكتب من المعاصرين، ليرى أين يقف الكاتب في معركة الأمة مع التغريب، وأين يقف الكاتب في مواجهة الأمة للغزو الفكري والثقافي. وما هي أصوله من التراث التي يستند اليها. وبعدها يمكن تقييم الانتاج الفكري لكل كاتب وخاصة اذا تمت عملية التقييم بمشاورة واستفتاء العلماء العاملين الذين ينفون عن الشريعة تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.
- اعتاد كثير من الناس أن يستدلوا على صحة أفعال وأقوال مما يفعله الناس والعوام بسكوت علماء وفضلاء لهم مكانتهم العلمية والعملية. وهنا لا بد من التنبيه الى أن هذا الاستدلال لا يصح ولا بد من الحذر منه وخاصة في ظروف الجهل المنتشر وقلة الاحترام والتوقير لاهل العلم والفضل. وأوجب ما ينبغي لهذا المعنى أن يعتبر اذا كان الامر يتعلق بالاستبداد السياسي أو مسائل تتعلق بأهل الحكم والسياسة، حيث لا يملك أحد أي حصانة مهما بلغ من العلم والفضل إذا خالف في الرأي أهل الحكم والسياسة. وإن من الظلم أن ننسب الى العلماء ما لم يقولوه، وان من الاعنات والمشقة والحرج أن نلزم العلماء أن يكونوا من سادة الشهداء، والامة كلها بمعزل عن ما يجب لحملة العلم من النصرة والولاء والاحترام.
- عرفت بعض دور النشر باهتمامها بنشر كتب الثقافة الإسلامية والتراث، وقد يتخذ بعض الناس سمعه بعض دور النشر قرينة للاطمئنان الى ما قد تحتويه بعض الكتب، وذلك ينطوي على ، ولا بد من الحذر من الاطمئنان الى ما تحويه الكتب لمجرد سمعة الناشر، فالناشر تاجر، وقد لا يتحرى

قبل نشر بعض الكتب الى ما قد تحويه من مخالفات وشذوذات. ولا بد قبل قبول رأي أو الاطمئنان اليه من عرضه على أهل العلم والرأي والمشورة.

دليل الثقافة الإسلامية

سنحاول فيما يلي من الفصول استعراض العلوم الإسلامية لبيان أهم ما يجب على الدارس معرفته واستحضاره عندما يطلع على مصنفات هذه العلوم، ابتداء من التعريف الى بيان اهمية العلم ودوره في البناء الثقافي والفكري المتوازن، ثم البيان لأهم المسائل الخلافية والمشكلات التاريخية المتعلقة بهذا العلم وبيان الموقف منها.

فإذا انتهى الدارس من هذه المقدمات كان حرياً أن يستفيد من الكتب والمصنفات دون المبالغة في الحذر مما قد تحويه بعض الكتب من مزالق ومخالفات وشذوذات، فالدليل ــ كما نتمناه ــ يعطي المقدرة على كشف المزالق والتنبه للمخالفات والشذوذات، وخاصة إذا اعتاد المرء مراجعة العلماء ومشاورتهم والإصغاء لنصحهم ومشورتهم في الامور الموهمة أو المعضلة. والله المستعان.

العقيدة الإسلامية

يعتبر الحديث عن العقيدة أمراً أساسيا لكل من يريد التعرف على الثقافة الإسلامية. فعقيدة التوحيد هي المفتاح الذي يفتح القلوب البشرية للخير، وينشىء فيها الخير، ويربيها على الخير وينتج منها الخير، ولا يوجد مفتاح آخر لهذه القلوب يهيئها لما تهيئه لها «لا اله الا الله». ويقبل الناس في بداية رحلتهم للتعرف على الدين يحملهم شوق وحنين فطري لسماع ما يرقق قلوبهم لمعنى الايمان، ويلبي في ضمائرهم الرغبة في حديث يزيدهم خشوعا لله وخوفا منه ورجاء له فإذا اخذوا بقراءة كتب العقيدة أو التوحيد أو علم الكلام، اصابتهم خيبة امل، ولم يجدوا في امثال هذه الكتب ما كانوا يرجونه منها، لذا كان من الضروري أن نثبت هنا بعض المقدمات التي تعين الدارس على الانتفاع بما جاء في كتب العقيدة دون أن يبالغ في النسبة اليها ليس من دورها ولا وظيفتها.

عرف العلامة ابن خلدون علم الكلام أو علم التوحيد بقوله: «هو علم يتضمن الحِجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة».

وواضح من هذا التعريف أن هذا العلم يهتم بوضع الحدود العلمية والتعاريف الدقيقة لما صح من عقيدة الأمة عن النبي الكريم، وليس من وظيفة من يتصدى للتحرير العلمي الدقيق لمسائل العقيدة أن يتوقف ليشرح كيفية تربية النفس على هذه المعاني وكيفية انصباغ القلب بها حتى تكون صفة لازمة له تسوق الجوارح الى الالتزام بمقتضيات هذا الايمان.

فعلم التوحيد هو محاولة لحصر المعاني في عبارات واضحة، تخاطب العقل وفق ما رسخ في العقل البشري من بدهيات، قطعا لاحتمالات الشغب والتشويه، من دعاة الفتنة والمبتدعة.

لقد غلب على كتب الكلام والتوحيد ــ وخاصة القديمة منها ــ التأثر بأسلوب الفلاسفة ومناهجهم في الجري وراء محاولتهم العقيمة في تحكيم العقول في مواضيع العقيدة والغيب والخوض في المسائل التي لا سبيل للعقل اليها وهي خارجة عن مجاله وسلطانه. وهي محاولة تُقسّي القلب وربما وصلت بمن يزاولها الى متاخمة الشك والالحاد، ولمثل هذا المعنى صرح الامام الغزالي بخطورة المطالعة لامثال الكتب التي تفصل في المناقشات العقلية فقال: «واذا تركنا المداهنة ومراعاة الجانب حكمنا أن الخوض في علم الكلام حرام إلا

لأحد رجلين: رجل استحكمت به شبهة فلا سبيل الى رده عنها الا بمثل حجاج اهل الكلام. ورجل كامل العقل راسخ في الدين يخوض في الكلام ليداوي به شبهة اصحاب الشبه».

وإن هناك فرق كبير بين ما يصعب على العقل استيعابه والخوض فيه وبين ما يحكم العقل باستحالته فما صعب على العقل استيعابه يرجع فيه الى الخبر الصادق من الوحي الالهي، ولا يتجاوز ذلك، واما ما يحكم العقل باستحالته فهو الذي يصادم القوانين المركوزة في العقل البشري كما هي الحال في عقائد الديانات والنظم البشرية أو المتحرفة. وبمثل هذه المصادمة يستدل المسلمون على فساد العقائد الباطلة، دون أن يكون في وجود ما يصعب استيعابه وفهم تفصيلاته وكيفياته دليل على تماثل الحال بين ما أحالت اليه الشريعة من عمومات لا يحيلها العقل ولا تصادم ما ركز فيه، وبين خرافات وأباطيل وأوهام أهل العقائد المنحرفة والتي يحكم العقل البشري ببادىء الرأي بمصادمتها لبديهياته و أولياته الفطرية.

وقد بيّن الامام الشاطبي في الموافقات أن من القواعد المستنبطة من كون الشريعة أميّة نزلت على معهود العرب الأمِّيِّين في الفهم والادراك. إن الشريعة لم تعرِّف من الأمور الإلهية إلا بما يسع فهمه وأرجت غير ذلك فعرفته بمقتضى الأسماء والصفات وحضّت على النظر في المخلوقات، وأحالت فيما يقع فيه الاشتباه على قاعدة عامة وهي قوله تعالى «ليس كمثله شيء» وسكتت عن أشياء لا تهتدي اليها العقول. ومن طماح النفوس الى ما لم تكلف به نشأت الفرق كلها أو أكثرها. اه. (*الموافقات، الشاطبي*).

وللقرآن الكريم طريقة متفردة في غرس عقيدة التوحيد في القلب. فبالاضافة الى إمتاع العقل البشري ومواجهته بمنطق فطري واضح بسيط، يضيف القرآن الكريم ما لا تستطيعه محاولات البشر من أسلوب يحتوي على ما يطلبه القلب ويطمئن اليه وما تنتشي به العاطفة والوجدان وما يمتع الحس والخيال من الوان الجمال المبثوث في الكون.

والطريقة القرآنية هي التي تفتح قلب الانسان وعقله على تذوق معنى التوحيد في كل ما يطالع الانسان من مشاهد واحداث وانفعالات في هذا الكون العريض. وقد قرر سيد قطب رحمه الله هذا المعنى بأجلى بيان اذ قال: «... وان العبارة البشرية كائنة ما كانت، والمناهج البشرية في تناول حقائق الالوهية كائنة ما كانت، وإن طرائق العرض البشرية في هذا الباب كائنة ما كانت.. لن تبلغ شيئا مما تبلغ إليه العبارة القرآنية والمنهج القرآني وطريقة العرض القرآنية... وهي ليست قاصرة عن أن تبلغ شيئا مما يبلغه القرآن فحسب، بل ربما كانت مبعدة من الحقيقة ــــ كما هي في صورتها القرآنية الفريدة البهيجة ــــ مهما بلغ الكاتب من تحري المنهج القرآني وادراك خصائصه» (*مقدمات التصور الإسلامي*).

إن تذوق معاني الايمان على طريقة القرآن الشاملة المستوعبة لا بد له من مربٍ يأخذ يد الانسان خطوة خطوة على طريق الاسوة والتربية والتأثر بالحال، وتلاوة القرآن بتدبر، والدوام على الذكر ونوافل العبادة... كل ذلك مما يربط القلب بمشاعر الإيمان والتي يصعب الاستغناء عنها بالكتب والمقالات المحررة مهما بلغت من الفصاحة والتركيز والبيان.

لقد كان من نتائج ابتعاد الناس عن التعامل المباشر مع القرآن بطريقته الفريدة في تقرير مواضيع العقيدة أن وقعوا في شرك نصبه لهم فريق من أهل البطالة الذين أرادوا أن يستحيل الإيمان الى كلمات جوفاء لا تزكي قلباً ولا تحرك باتجاه الفضيلة والخير. «فصلة الايمان بالعمل كصلة الخلق بالسلوك، فإذا آمن الانسان بالله العظيم، وأيقن باليوم الآخر، وصدق بما جاء به المرسلون. دفعه ذلك لا محالة الى استرضاء ربه والاستعداد للقائه، والاستقامة على صراطه. كما أن الشجاع في ميادين الخطر يقدم. والكريم في مواطن البذل ينفق، والصادق في اداء الحديث يتحرى الحق. وعسير ــ بل مستحيل ــ أن يهبط الانسان بحقيقة الدين عن هذا المستوى، أو أن يفهم من كتاب الله وسنة رسوله ما يغاير ذلك» (*عقيدة المسلم، محمد الغزالي*).

ولقد كان من إحدى نتائج ابتعاد المسلمين عن التعامل المباشر مع القرآن بطريقته الفريدة في تقرير مواضيع العقيدة، أن وقع المسلمون بنوع من سوء التفاهم حملهم عليه ردود الفعل والتأثر ببعض الظروف التاريخية التي مرت بالامة المسلمة. لقد عبر القرآن الكريم ووصف الذات الالهية بأوصاف وعبارات تقذف في القلب ما يعيد صياغته من جديد وقد امتلأ حباً لله وخشوعا له وخوفا منه ورجاء ورهبة ورغبة وحياء وأنساً... كل ذلك بعبارة مشرقة، حية مؤثرة، تصف الذات الالهية وصفاً من حاوله بعيداً عن القرآن وقع في إشكالات وملابسات. لقد وصف القرآن الكريم الله عز وجل بأوصاف اليد والعين وغير ذلك من الاوصاف التي لا يعلم البشر دليلاً على الحياة و القوة والتأثير غيرها، ولكن عبارة القرآن استعملت ذلك برفق ابتعد بها من شبهة التجسيم والتشبه بالخلق سبحانه وتعالى ــ وقد أجمع المسلمون سلفاً وخلفاً أن هذه العبارات لم يفهم منها قط ما تدل عليه في أصل اللغة من معنى الجارحة والجسمية وأجمعوا على صرف هذه العبارات عن مدلولها الاصلي تنزيها لله سبحانه وتعالى عن صفات النقص ومشابهته لخلقه. «ليس كمثله شيء وهو السميع العليم».

وقد كان من شأن الجيل الاول الذين نزل القرآن بينهم أن ركنوا الى طريقة القرآن في تقرير العقيدة وفهموا من العبارات الموهمة للتشبه بالخلق أو الجسمية انها لا تعني الجارحة والجسمية قطعا ووكلوا ما أريد بها الى علم الله بتسليم واطمئنان. ثم جاءت أجيال من المسلمين أفسد الجدل صفاء إيمانها فلم تعد تطمئن

الى ما اطمأن اليه الجيل الاول، ودعاة الفتنة والتشكيك منتشرون يتأثرون بالفلسفة ومناهج الفلاسفة، فانبرى علماء الأمة للرد على موارد الفتنة والتشكيك وقربوا معنى التنزيه للاذهان بما تقبله لغة العرب من انتقال معنى الكلام عن أصل وضعه الى معنى آخر لقرنية تصرف عن المعنى الاصلي (وذلك ما يطلق عليه علماء اللغة المجاز).

وحدث أن ابتليت الأمة بموجة عارمة من الباطنية الملحدة زرعت الشك في كل مصادر شريعة بتأويلات فاسدة وادعاءات تهدف الى هدم أصول الشريعة واركانها فانبرى لهم شيخ الإسلام ابن تيمية يرد عليهم ويعيد الامور الى نصابها ولكنه رحمه الله وقع بنوع من المغالاة وهو يرد على الباطنية فأنكر اي نوع من التأويل وأنكر أن يكون في لغة العرب المجاز الذي تنتقل فيه المعاني بالقرائن الصارفة. مما أوهم بامكانية فهم الجارحة والحسمية بحق الله سبحانه وتعالى. وكان ذلك الإيهام سبباً في سوء تفاهم حاد بين ابن تيمية رحمه الله وعلماء عصره ومن جاء بعدهم من علماء الأمة. وسادت موجة من التقاذف بالتهم بين تجسيم وتشبيه من جهة وتعطيل وما شابه ذلك. وواضح أن كل ما يحمله سوء التفاهم من شحنات الاتهام والعداوة تنتهي بمجرد الرجوع عن مغالاة ردود الفعل التاريخية والرجوع الى طريقة القرآن الفريدة في تقرير العقيدة والوقوف في فهمها على ما وسع الجيل الاول ــ خير القرون ــ وعلى ما تستسيغه لغة العرب من أساليب للفهم والبيان.

إن من أهم ما يجب على طالب المعرفة حين يتعرف على عقيدة التوحيد ويعلم تفصيلاتها، أن يعلم أن المعرفة هي وسيلة تزكية للنفس وتطهير للقلب واستقامة للجوارح وليست بأي حال وسيلة استعلاء على الناس واتهام لهم وتهوين من شأنهم وما هم فيه إن لمس فيهم الخطأ أو النقص أو القصور.

إن على من علم حدود العقيدة وتفصيلاتها أن يخاطب الناس راحماً ضعفهم وجهلهم، يعلمهم ويبين لهم برفق وتلطف وان يبتعد جهده عن استعمال كلمات الاتهام أو الحكم بالكفر والنفاق. إن على العالم أن يبين أن هذا العمل أو هذا الفكر أو هذا الرأي هو مما يصادم عقيدة التوحيد ويتناقض معها، وليس عليه ولا من شأنه ولا من واجبه أن يتوجه الى آحاد الناس ليطلق عليه الوصف المناسب ــ برأيه ــ فان هذا ــ ولو كان حقا ــ يقطع طريق التوبة والرجوع الى الحق ويفتح الطريق واسعاً أمام الشيطان ليغريه بالانتصار للنفس والتمسك بباطل يخيل إليه انه يُبقي عليه ماء وجهه و كرامته.

إن اطلاق كلمة الكفر على آحاد الناس ينطوي على خطر كبير، لذلك فقد شدد العلماء في ذلك الا بعد البيان والتوضيح وقيام الحجة، والاصرار والعناد والتبجح بالباطل والدعوة اليه ففي مثل هذه الحالة فقط

جاز ذلك ــ وقلما تتوفر هذه الشروط ــ والاولى في هذا الوقوف عند شرح وبيان عقيدة التوحيد وما تقتضيه في الفكر والقلب والواقع وبيان خطورة المخالفة على ايمان المؤمن ونجاته عند الله.

وأخيراً، تتوفر في المكتبات بعض الكتب المترجمة أو المؤلفة بالعربية والتي تتحدث عن الايمان بالله بطريقة تساق فيها الادلة العلمية لاثبات وجود الله تعالى ونفي الصدفة واثبات الصانع وما الى ذلك. والناظر في هذه الكتب يطالع غرائب وعجائب من خلق الله لا شك انها تزيد من الايمان بالله ولكن هذه الكتب في الوقت نفسه تنطوي على ثغرة لا بد من التنبيه عليها. لقد ألفت هذه الكتب وخاصة المترجمة منها بخلفية غربية لمعنى الايمان حيث يبذل الكاتب جهده في اثبات وجود الله بمختلف البراهين والأدلة فإذا انتهى القارىء من قراءة هذه الكتب وبذل ما تحتاج اليه من جهد عقلي وتركيز ذهني... يتنفس الصعداء ويكون منتهى ما أدركه هو الإيمان بوجود الله. الإيمان الفلسفي الذهني البارد الذي يمتع العقل وُيطرب أنصار النظر العلمي ولكن هذا الايمان لا يصل منه الى القلب أثر، ولا يغري بفضيلة ولا يدفع الى تضحية.

إن وجود الله تعالى ــوهي قضية تشغل بال المؤمنين الغربيين في مواجهة الإلحاد المتكلف والذي يلبس مسوح العلم زوراً وبهتانا نكاية بالكنيسة وإله الكنيسةــ إن هذا الوجود، لا علاقة له بالمعنى الإسلامي للايمان بالله تعالى، هذا الايمان الذي يعيد صياغة النفس من جديد لتقبل على الطاعة وتترفع عن المعاصي، وتلتزم بمقاييس الإسلام في كل شيء، في القلب والفكر والجوارح. فإذا انتبه الدارس الى هذا المنزلق كان حرياً أن يستفيد من الادلة العلمية المبثوبة في الكتب التي تتحدث عن الايمان ــ بالمفهوم الغربي ــ دون أن يقف عندها ويعتبرها نهاية المطاف في اندراجه في عداد المؤمنين.

فإذا استحضر الدارس هذه المقدمات كان حريًّاً أن يستفيد من كتب العقيدة المشهود لها عند اهل العلم بموافقتها لاهل السنة والجماعة وابتعادها عن شبه اصحاب البدع ومثيري الفتنة، يطلب منها التحرير العلمي الدقيق، ولا يقف عندها لاستكمال معنى الايمان نفسه، بل ينطلق في رحاب العبادة والذكر ونوافل الطاعات وقراءة القرآن، ويتخذ من الرفقة الصالحة والأسوة الصالحة خير معين للترقي في معارج الايمان.

تــــفســـــير الـــقرآن الـــكريم

أنزل الله تبارك وتعالى القرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وسلم فكان هذا القرآن كتاب هداية خرجت من بين سطوره خير أمة، وكان القرآن في الوقت نفسه معجزة الرسالة الخاتمة، كتاب لا تفنى عجائبه ولا يبلى على كثرة الرد.

وسرت آيات القرآن في الأمة روحاً جديداً يمدها بالهداية ويعطيها هوية متميزة ويعطيها القوة والاندفاع، واحست الأمة بهذه النعمة فعاشت للقرآن حفظاً وتعهداً واعتناء بكل ما يتصل به، حتى غدت الأمة في ثقافتها وإنتاجها الفكري والادبي تدور حول القرآن ولغة القرآن ومعاني القرآن.

وكتب الكثير عن القرآن الكريم وتكوّن عبر العصور باب من أبواب الثقافة الإسلامية عرف باسم علوم القرآن، واختص هذا الفن ببيان تاريخ القرآن الكريم وجمعه وتدوينه ورسمه وقراءاته وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وأصول التفسير وغير ذلك. ولا بد للمطلع على الثقافة الإسلامية من معرفة الحد الادنى من مصطلحات وحقائق هذا العلم.

وقد كتب الكثير في علوم القرآن حيث يتكرر معظم الكلام في أكثر الكتب وإن كانت الكتب التي صنفت حديثا أكثر منهجية في عرض أساسيات هذا الفن، حيث يغلب على الكتب القديمة الغزارة والاطالة والحشد والاكثار من النقول وكل ذلك يحتاج الى التنقيح والترجيح، الامر الذي لا يتوفر في أكثر الاحيان. ولا بد في هذا الدليل من وقفة نوضح فيها للمطلع على الثقافة الإسلامية بعض الامور المتعلقة بتفسير القرآن الكريم والتفاسير التي كتبت عبر العصور ليكون الدارس على بينة من أمره عندما يتصل بالتفاسير الكثيرة والشروح التي كتبت حول القرآن الكريم.

كان القرآن الكريم يتنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم نجوماً حسب الاحداث والوقائع. يأخذ بيد الجماعة المسلمة الاولى خطوة خطوة على طريق الكمال الانساني، لإبراز الأمة التي اراد الله اخراجها للناس خير أمة. فكانت كل آية من آيات القرآن الكريم حين تتنزل حلاً لمشكلة أو توجيهاً في موقف أو تثبيتاً على هداية، أو زيادة في إيمان، والمسلمون في كل هذا يحسون ببركة الوحي ويتذوقون حلاوة القرآن، يأخذهم ببيانه ويأسرهم بحكمته وهدايته.

وكانت توجيهات النبي الكريم تبين لهم معاني القرآن بالكلمة والموعظة والمواقف العملية حتى عاش الجيل الاول حياة قرآنية تمثلت فيها هداية القرآن في كل مجالات الحياة الانسانية، وكان جو الجهاد والمجاهدة لنشر الدين والتمكين له في مواجهة العناد والنفاق والضعف البشري خير معين لفهم المدلول العملي لهداية القرآن.

لقد عاش الجيل الاول متذوقا لهداية القرآن فلم ير الصحابة ضرورة تسجيل ما عاشوه عملياً، واعتبروا فهمهم العملي لمدلول الآيات وتوجيهها تحصيل حاصل. فاقتصر ما نقل عنهم في تفسير القرآن على الشروح والإضافات والتي ظنوا أن ما فهموه وما عاشوه من هداية القرآن يستقيم لكل من فهم عنهم هذه الشروح البسيطة، والتي ــ في مجموعها ــ يمكن أن ينحصر في شرح الغريب أو شرح أسباب النزول، أو انطباق معنى الآية ومدلولها على واقعة حدثت وان لم تكن تلك الواقعة سببا للنزول.

لقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس أن يعلمه الله التأويل، فكان ما صح عنه من تفسير القرآن لا يتجاوز صفحات معدودات، مما يؤكد ما سجلناه من طبيعة ما شعر الصحابة بضرورة تسجيله مما قد لا يتصل بحقيقة فهمهم لهداية القرآن وحياتهم العملية في بركة هذه الهداية.

وامتدت دولة الإسلام وزخرت مراكز العلم والثقافة بالكثير من العلماء الذين أخذوا كل ما نقل عن الصحابة والسلف وأضافوا عليه مما وصلت اليه ثقافتهم بعد أن أغنتها تجارب وبعد أن نضجت علوم وفنون، وبعد أن اطلع المسلمون على ثقافات غيرهم من الشعوب والأمم فتأثروا بها حينا ونجم عن ذلك مدارس فكرية متعددة ومشارب متنوعة ووجهات نظر مختلفة أغنت الحياة الفكرية بالكثير، وفتحت على المسلمين في الوقت نفسه أبواباً من الجدل والمراء والمناظرات، حتى اذا وصل المسلمون الى عصر التدوين، غدت الكتابة في تفسير القرآن مسرحاً لعرض وجهات النظر المختلفة في جميع أبواب العلم والثقافة، وانتقل الحديث عن هداية القرآن الى الظل بعد أن هيمن على التفاسير عقل مدافع منافح يستعرض الحجاج والأدلة ويبني الأحكام والمذاهب.

والمطلع على تفاسير القرآن الكريم اليوم يجد نفسه مرة واحدة في خضم مصطلحات وآراء ومذاهب في كل فن من فنون اللغة والفقه والعقيدة والتاريخ... بحيث يصعب عليه أن يتابع ما يجري مع غياب الخلفية التاريخية لهذه المعارك الفكرية المعروضة على مسرح تفسير القرآن الكريم.

فإذا أضفنا الى ذلك ما أُولع به بعض العلماء من النسبة الى القرآن الكريم علوم الطبيعة والفلك والحساب، يعتسفون الطريق ويتخذون من كل مناسبة قريبة أو بعيدة دليلاً يثبتون به تفاصيل هذه العلوم في القرآن

الكريم بعيداً عن فهم حقيقة دور الهداية القرآنية ومجالها. وإذا أضفنا إلى ذلك ما جاء به أصحاب التفسير الإشاري والرمزي من الطامات بادعاء أن أذواقهم ومواجيدهم هي تفسير للقرآن الكريم؛ إذا استحضرنا ذلك كلـــه وجدنا أن الخوض في تفسير القرآن الكريم من خلال ما نقل الينا من عشرات التفاسير بدون منهج ودليل هو مظنة اضطراب وحيرة، وبالنتيجة يبتعد الناس عن فهم حقيقة الهداية القرآنية.

القرآن الكريم كتاب هداية، وصفه الله تعالى بأنه «هدى للمتقين» و«هدى للناس» و«هدى وبشرى للمحسنين» و«يهدي للتي هي اقوم». وهداية القرآن وبيانه لما يريد الله سبحانه من عباده في كل ما يهمهم من امر دينهم ودنياهم.... هذه الهداية هي توجيهات ربانية تنتظر من يفهمها ويعيها، لتجد طريقها بعد ذلك الى القلب، فتستقيم مشاعر القلب وأحاسيسه، ويستقيم العقل على سنن الاعتدال فلا يضطرب ويتأرجح بالهوى والضعف والقصور، ولا يخرج عن حده ويتجاوز مداه غرورا بما عنده من علم، وتستقيم الجوارح من ثم وتستقيم الحياة كلها كما أراد الله لعباده حياة طيبة ليس فيها عسر وضنك ومكابدة وعذاب.

إن لكل آية في كتاب الله معنى ومغزى يجب أن يفهم ليجد طريقه الى الحياة، و الى قلوب الناس وعقولهم وجوارحهم مهما كانت ظروفهم وأوضاعهم وطبيعة الحياة التي يعيشون، ولا معنى لخلود الرسالة وحفظ القرآن الكريم وقيام الحجة به الى قيام الساعة، إن لم يتحدد معنى الهداية القرآنية في هذا الاطار العملي الواقعي الذي يجعل الناس في علاقتهم بالقرآن جندياً ينتظر الامر أو محباً يتشوف الى ما يرضي الحبيب ويبذل جهده في صياغة حياته بما يشير به ويلمح اليه.

لقد كان هذا المعنى للهداية معروفا وبديهياً عند من كانوا لا يتعلمون من القرآن شيئاً جديداً إلا بعد أن اطمأنوا الى أنهم فهموا ما تعلموه من قبل وعملوا به.. فتعلموا العلم والعمل جميعاً.

هذا المعنى من الهداية في الصلة بالقرآن الكريم لم تعد له هذه الحرارة وهذه الحيوية في مطولات كتب التفسير. فالكلام عن البلاغة وروعة البيان والاشارات العلمية، والحقائق الكونية وغير ذلك مما قد يستوقف الناظر في القرآن الكريم. مفيد اذا وضع في مكانه المناسب كمساعد لتأثر القلب وتفتح العقل وانشراح الصدر لمعنى الهداية، فلا يغادر القارىء مجموعة الآيات من القرآن الا وقد شده كل ما فيها من امتاع عقلي وامتاع لغوي وايقاع وجرس وطريقة في البيان والتصوير... شده كل ذلك الى الالتزام بمفهوم الخطاب والتوجه لتطبيقه وتنفيذه.

ولا بد لمن أراد فهم مدلول الخطاب من آيات القرآن الكريم من استحضار هذا المعنى من الهداية فلا يعتبر ما قد تحتويه الآيات من مجالات الامتاع والنكات اللغوية والمنطقية هي نهاية المطاف، يبدىء ويعيد في بيانها والاحتفال بها وقد يغفل عن كون ما يحتفل به ويهتم له مساعدات للتأثر ببيان القرآن والانفعال والالتزام العملي بمعانيه ومدلولاته.

وهداية القرآن الكريم وعملها في قلب المؤمن وعقله، وصياغتها الجديدة لشخصية المسلم لا تعمل إلا بشرط أساسي لا بد من توفره والحرص على اكتسابه. إن القرآن الكريم هو هدى، ولكنه هدى للمتقين وموعظة للمتقين وهدى وبشرى للمحسنين. فالقرآن الكريم يهز من الاعماق نوعا خاصاً من الناس.. «تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم»، فما لم يتحقق هذا الشرط وما لم يكن القلب في حالة شعورية من التأثر أو الاستعداد للتأثر فستكون هداية القرآن وقدرته على التأثير وصياغة القلب والعقل من جديد امراً لا يتحقق ولا يلمس المرء آثاره ونتاجه. إن القرآن الكريم هداية ورحمة يسكبها الله في قلب من استعد لاخذ حظه منها فمن جاء بغير إناء ورجع بالحرمان فلا يلومن إلا نفسه.

وقد ذكر الامام ابن القيم في «الفوائد» تعليقاً على قوله تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) فقال رحمه الله: المراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، وقوله أو « أو ألقى السمع» أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه الى ما يقال وهذا شرط التأثر بالكلام. وقوله «وهو شهيد» أي شاهد القلب حاضر غير غائب.

وقد جاء في القرآن الكريم ما يؤكد أن تأثير القرآن على أولئك الذين لا يريدون الإيمان ولا يطلبونه هو تأثير معاكس فلا يزيدهم القرآن إلا عمى وضلال (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى). وقد جاء الامام الغزالي رحمه الله بكلمة تنطوي على حكمة نافعة عندما قال لمن طلب منه النصيحة والموعظة، «قال يا بني الموعظة سهلة والمشكل قبولها» فالموعظة ودلالة المرء الى ما فيه خيره أمر قد يحسنه كثير من الناس ولكن المشكل الحقيقي في التربية والتوجيه هي صياغة القلب والعقل بطريقة تفتح للموعظة والنصيحة طريقا الى القلب، فيفهم العقل ويتأثر القلب وينفعل فيظهر أثر الموعظة بعد ذلك سلوكاً جديداً ومشاعر ومفاهيم تنضبط كلها بمدلول الموعظة وما تشير اليه. والمشكل في عملية التربية ــ كما قال الامام الغزالي ــ هو هذه الصياغة للعقل والقلب. فإذا امتلك المرء القلب الحي المنفعل والعقل المتقبل غدا الكون بكل ما فيه خير واعظ يدل المرء الى مصادر الحق في خلق هذا الكون، وغدا كذلك كتاب الله المقروء موجهاً ودليلاً... وانتفع المرء بعدها بهداية القرآن. فــهداية

القرآن هي منحة إلهية يهبها الله سبحانه للذين يبذلون الوسع في مكابدة الجهل والقصور والهوى في أنفسهم و في الناس من حولهم.

لقد نزل القرآن الكريم أول ما نزل ليأخذ بيد الجماعة المسلمة الاولى ليصنع منهم خير أمة، وكابدت هذه الجماعة من أنواع البلاء والتكذيب والاستهزاء والسخرية والتشريد الشيء الكثير وصبرت على ذلك كله حتى فتح الله بينها وبين عدوها ومكَّن لها في الارض ودخل الناس في دين الله أفواجا. وصبرت على إغراء الغنى وزهرة الدنيا وصدقت ما عاهدت ربها عليه. والقرآن الكريم يتنزل عقب كل حادثة ليأخذ بيد هذه الجماعة المختارة وهي تصعد معارج الكمال الانساني يعرفها في كل خطوة ما كان من امرها وتمثلها لحقيقة ايمانها أو تطبيقها لمقتضيات هذا الايمان، ويفتح الله لهم من الفهم للهداية ومقتضياتها ما شاء الله تصديقا لوعده (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين).

بركة القرآن و هدايته مكفولة لمن قرأه بفهم و تدبر ، و القراءة المقطوعة عن الفهم و التدبر علامة هجر للقرآن و إخراج له عن دوره و وظيفته .

القرآن الكريم كلام الله ، و قد تجلى الله سبحانه فيه لعباده بأسمائه و صفاته . و واجب العبد أن يفهم معاني الأسماء في سياقها من الآيات ثم يعطي من عقله و قلبه و جوارحه ما تقتضيه معاني الأسماء من استجابة و أدب ، وكل ذلك بتوسط و اعتدال فلا تصرفه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر . سئل الإمام ابن تيمية عن العارف بالله الذي ما رؤي ضاحكاً قط إلا يوم توفي ولده ، و عندما سئل عن ذلك قال " أحب الله شيئاً فأحببته " و كيف أن النبي صلى الله عليه و سلم بكى لموت ولده إبراهيم . فأجاب ابن تيمية : هدي نبينا أكمل الهدي ، فقلب هذا العارف لم يتسع إلا لمعنى واحد وهو الرضا بالقضاء ، و قلب نبينا صلى الله عليه و سلم اتسع لمعنيـــين وهما الرضا بالقضاء و الرحمة للولد .

لا يفهم القرآن الكريم و لا ينتفع بهدايته إلا من أخذه وحدة متصلة متكاملة . فالتبعيض و التجزيء و عزل بعض الآيات عن جملة القرآن لا يعطي فهماً قرآنياً بل يعطي شذوذات و مبالغات لا تمثل حقيقة هداية القرآن .

هداية القرآن لها هدف مرسوم و غاية تتمحور حولها و تخدمها أغراض القرآن و موضوعاته و معانيه . و الغفلة عن غاية القرآن سبب في حجب كنوزه و عدم الفهم عن الله منه .

غاية هداية القرآن إخراج أمة تستجمع صفات الخير و مؤهلات الإستخلاف في الأرض ، لتستقر الحياة الطيبة و يستأصل الفساد الذي يهلك الحرث و النسل و تنتهي معاناة الضنك و تعم الرحمة للعالمين . فقوله تعالى " ولتكن منكم أمة " يشير إلى تلك الغاية . و " من " هنا هي لبيان النوع و ليس للتبعيض .

خطاب القرآن للإنسان هو خطاب للفرد ليكون مؤهلاً لحمل مسؤولية الإستخلاف و النهوض بتبعات استقرار الحياة الطيبة في الأرض و ليكون قادراً على كبت الفساد و محاربته و نشر الرحمة للعالمين ، و ذلك كفرد في أمة و لبنة في بناء و عضو في جسد .

إذا تحدث القرآن الكريم عن " العقيدة " فهو يصـــيغ العقل و القلب ليستخرج من الإنسان أقصى ما تبلغه بشريته من الخير و إرادة الخير و محبة الخير ، و ليكون المؤمن بعد ذلك جندياً في أمة مهمتها الكونية الدعوة إلى الخير . فللعقائد مقاصد ترجع إلى تزكية الإنسان و تفعيل مكامن الخير و العطاء في فطرته و جبلته .

إذا تحدث القرآن الكريم عن العبادة ، فهو يصل الإنسان بالله سبحانه و تعالى ليستمد منه القوة و الرفعة و يستعين به في مواجهة ضعفه و تسلط الشهوات عليه . " إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسّه الخير منوعا ، و إذا مسّه الشر جزوعا ، إلا المصلين . "

إذا تحدث القرآن الكريم عن الشرائع و الأوامر و النواهي و الضوابط و الحدود ، فهو يبني أمة هدفها صلاح الكون و عمران الأرض و نشر الرحمة و رفع الضنك و الضيق و الحرج عن العالمين .

هداية القرآن لها وجهان متكاملان . فالقرآن في جانب منه هو الهداية الإلهية المطلقة التي تقرر الحقائق و تتعامل مع الكون و مع جوهر الإنسان و طبيعته . و القرآن كذلك له جانب آخر يتعلق بصلته المباشرة بـــتنـــزيله على الرسول صلى الله عليه و سلم حيث تـــفاعل القرآن الكريم مع خصوصيات الزمان و المكان المتعلقة بـــنشأة الأمة و هو يأخذ بيدها في شعاب مكة و أرض المدينة و يتعامل مع الطبيعة الفريدة لأرض العرب و قبائل العرب. فلا بد من فهم الطبيعة المزدوجة لهداية القرآن في جانبها المطلق و في جانبها التاريخي . فتعليقات القرآن على مجريات الأحداث في مكة و بدر و أحد و الخندق و حنين لها قسط كبير من التاريخية المتعلقة بنشأة الأمة و لكنها في نفس الوقت تحمل قسطاً كبيراً من معالم المنهج الرباني الخالد الذي يمكن تنزيله و استلهام روحه في ظروف تاريخية أخرى. و لعل القاعدة المشهورة في الفهم عن القرآن " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب " تشير إلى هذه الطبيعة المزدوجة في التلقي عن القرآن في إطاره التاريخي و هدايته المطلقة . فلا بد عند الأخذ عن القرآن الكريم و التحاور معه من

تحديد مقدار الصلة التاريخية للنص (خصوص السبب) و مدى ما يمكن اعتباره جزءاً من الهدي الإلهي المطلق الذي يتجاوز ظروف و ملابسات عصر التنزيل (عموم اللفظ) . و هنا لا بد من الإشارة إلى أن قضية الناسخ و المنسوخ في القرآن الكريم لها صلة وثيقة بتاريخية النص القرآني الذي نزل ليعالج وضعاً خاصاً في بيئة عصر النبوة ، فـعندما نقرأ آية من القرآن و نحن نعلم أنها لا تمثل الحكم النهائي لما استقرت عليه الشريعة ، فإننا نعلم – في نفس الوقت – أن هذه الآية تؤسس لمعنى التدرج في التشريع و تؤسس لمعنى الواقعية التي يجب أن نستصحبها في محاولتنا لتنزيل هدي القرآن في واقع الناس . و قد وقع كثير من المفسرين في الغلو في ادعاء النسخ في القرآن و هم في ذلك يغفلون عن أن البعد التاريخي في هداية القرآن يحمل في نفس الوقت قسطاً كبيراً من معالم الهدي القرآني الخالد و خصائص الشريعة الخاتمة .

فإذا فطن الدارس أو المربي هذه المعاني كان حريا أن ينتفع من كتب التفسير، يعتني بالمعاني والمدلول التطبيقي للآيات، يأخذ القرآن كله جملة واحدة متماسكة متوازنة، لا يجنح الى طرف من حقائق القرآن بتجاهل حقيقة في طرف آخر، يبذل الوسع في فهم ما فهمه العرب والصحابة الذين نزل بينهم القرآن، ويحذر من القول بالرأي في القرآن الا بعد الاطمئنان الى أن ما تبادر الى ذهنه تسيغه لغة العرب ويشهد له فهم صحيح لمقاصد القرآن و سنة النبي صلى الله عليه و سلم و ما تمحص من منقول عن السلف.

ومعرفة أصول التفسير شرط لا بد منه للانتفاع بالقرآن، الكتاب الذي لا تفنى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد، انزله الله تعالى لتكون هدايته مفتاح الخير للناس في الدنيا وعمارتها بحياة طيبة، ومفتاح النجاة في الآخرة الى جنة الخلد ورضوان الله.

الحديث النبوي الشريف

أرسل الله تبارك وتعالى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخالدة وتكفل الله سبحانه بحفظ هذه الرسالة من التشويه والتحريف للاصول والمبادىء، فحفظ الله تعالى القرآن الكريم ونقل إلينا غضاً لم تمتد اليه الاجتهادت البشرية بالزيادة والنقصان والتقديم والتأخير.

وكانت المهمة الاساسية للنبي هي بيان القرآن بالكلمة والموعظة والمواقف العملية، فكان خُلقهُ القرآن وحفظت أقوال النبي الكريم وافعاله وسيرته من الضياع والعبث تحقيقا لوعد الله سبحانه بحفظ القرآن.

والإطلاع على سيرة النبي والقراءة لاحاديثه الشريفة أمر أساسي يبعث في القلب مشاعر الحب والولاء للنبي الكريم ويجعل الالتزام بأحكام الشريعة تأسِّياً محبباً بسيد الخلق صلى الله عليه و سلم واقتداء به واتباعاً لهديه وسنته. ولا بد لدارس السنة النبوية من أن يستحضر عدداً من النقاط الهامة يستعين بها على تجاوز بعض المشكلات في الثقافة الإسلامية.

١ــ السنة النبوية الشريفة مصدر أساسي من مصادر التشريع بمعنى أنها منشئة للاحكام استقلالاً. فلا يلزم لثبوت حكم شرعي جاءت به السنة أن يكون في القرآن الكريم ما يشير اليه. وقد صنف في قضية «حجية السنة» مصنفات كثيرة نافعة ترد على من حمله سوء الفهم أو قلة العلم على المجادلة في هذا الامر المعلوم من الدين بالضرورة.

٢ــ السنة النبوية شارحة ومبينة للقرآن الكريم، فعمومات القرآن الكريم وقواعده العامة والأصول التي يثبتها هي الأصل الذي يجب أن نرجع اليه عند التعارض.

٣ــ يرجع كثير مما ينقله العلماء حول رد بعض الاحاديث الصحيحة الى موضوع الترجيح عند وجود التعارض أو مظنة وجوده، فالترجيح هو طرح دليل أو فهم لوجود دليل اقوى وفهم أكمل وأسلم لكليَّات الشريعة، وليس هو طرح الأدلة ونبذ الأحاديث لمجرد الهوى . ولذلك يذكر العلماء قاعدة مهمة في هذا الامر وهي أنه لا بد لحامل الحديث من الفقه أي لا بد له من الفهم للكليات والقواعد حتى يضع الحديث في موضعه بعيداً عن مبالغات الحرفية والشكلية أو الفهم الجزئي الذي تنقلب به الموازين ويختل به ترتيب اوليات الشريعة.

فالنقاش العلمي في قبول بعض الروايات أو رفضها لا علاقة له بموضوع إنكار السنة أو حجـــية السنة . فليس منكراً للسنة من شك في رواية آحاد الناس كائناً من كان إذا كان سبب الشك أو

الرفض للرواية هو تعارض مع أصل راجح أو دليل أقوى. فقد ردت السيدة عائشة خبر عمر ابن الخطاب عندما روى قول النبي صلى الله عليه و سلم " يعذب الميت بـــبكاء أهله عليه " و حلفت أن النبي لم يقل ذلك و أعقبت اعتراضها بقولها : أين تذهبون بقول الله تعالى " و لا تزر وازرة وزر أخرى " . فالمسألة هي كيف نواجه ما تعارض من الروايات مع الأصول و القواطع .

٤ـ نشأ في التاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية نتيجة للنقطة السابقة مدرستان من التعامل مع الحديث الشريف، عرفت إحداهما بمدرسة الحديث في مقابلة مدرسة الرأي (نسبة الى تقديم النظر الى الكليات والعمومات الشرعية قبل التسليم والقبول للروايات). وقد حملت المبالغات وسوء الظن كلا من الفريقين على تجاوز الاعتدال والانصاف في الاتهام والتشهير والطعن بما يعلم الناس براءة عوام المسلمين عنه فكيف بالعلماء والفضلاء وحملة السنة والهدي. ولعل من الخير طرح ما تبادلته الفئتان جانباً وعدم استعمال مصطلحاتهم العدوانية التي تحمل كثيراً من شحنات التحزب والتعصب مما لا خير فيه لفهم حقيقة التوجيه النبوي في كثير من القضايا والامور. ومهما حاول الانسان فسيظل الخلاف في مناهج الفهم حقيقة انسانية قائمة، وما على المسلم الا أن يعتاد سعة الصدر لقبول الخلاف وحسن الظن أسوة بما فعله عليه الصلاة والسلام عندما أقر فهمين متعاكسين لقوله: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة. فالسنة بعمومها دليل شرعي و أصلٌ لا بد من التسليم بحجيته ، و لكن اعتبار هذا الحكم الكلـــي العام ينطبق ضرورة على كل الروايات و آحاد الأخبار ينطوي على مبالغة و خلط بين الحكم الكلي و الحكم الجزئي و مستلزمات كل منهما . فإذا كان القياس دليلاً شرعياً قطعياً فقد اختلف العلماء كثيراً عند استعمال دليل القياس و القول في العلة دون أن يتهم بعضهم بعضاً بإنكار القياس ، و مرجع ذلك إلى الوضوح في الفرق بين الحكم الكلي و الحكم الجزئي ، هذا الفرق الذي لا يدركه العوام و أنصاف العلماء .

٥ـ خلود الرسالة وخاتميُّتها حقيقة معلومة من الدين بالضرورة، فلا بد والحالة هذه من ملاحظة النسبية الزمانية والمكانية للسنة النبوية حتى نتمكن من الفهم الكلي والفهم المقصدي لتصرفات النبي ليمكن بعدها التعامل مع السنة النبوية وتنزيل أحكامها الكلية على الظروف والاوضاع والاحوال المختلفة عن عصر التنزيل والرسالة. فالسنة هي التنزيل و التطبيق لهدي القرآن و عموماته في بيئة العرب في عصر النبوة ، ولعل من أشد الاخطاء فداحة في التعامل مع السنة النبوية (في القضايا التي لا تتعلق بالشعائر و العقائد) إهمال هذا العامل الاساسي في الحياة البشرية، فيصبح عندها التعامل مع

السنة بناء في الفراغ وتصبح محاولة إحياء السنة وتطبيقها اعتسافا وتجاوزا واسقاطا للواقع، الامر الذي ينتهي بالعاملين الى فهم تاريخي لا يستقيم مع خلود الرسالة و عالمية هدي القرآن .

٦ – للنبي صلى الله عليه و سلم في أقواله و أفعاله أحوال و مقامات و قد أوضح الإمام القرافي هذه القضية في كتاب الفروق عندما أوضح أن تصرفات النبي ترجع إلى مقام النبوة و التشريع أو مقام الفتوى و القضاء أو مقام الإمارة أو حال بشريته و دواعي جبلته الإنسانية . و لا بد من استقراء الأحوال و توسم القرائن الحافة بالتصرفات النبوية لإلحاقها بما يليق بها و فهمها على وجهها . و فهم هذه القاعدة يحل الكثير من الإشكالات في فهم السنة على وجهها و تنزيلها على الواقع المتغير بما يحقق مقاصدها و معانيها .

٧_ بذل العلماء المسلمين جهودا فريدة لم يسبق اليها في تاريخ الضبط والتوثيق لتمحيص ما نقل عن النبي صلى الله عليه و سلم ووضعوا لذلك القواعد والاصول وعرضوا جميع ما نقل عن النبي على مقاييسهم الدقيقة لضبط الروايات والبحث عن حال الرواة وعدالتهم وحفظهم وسيرتهم وأقوال المعاصرين فيهم.. حتى خرج العلماء بمجموعة من كتب الاحاديث ضمنوها ما اطمأنت اليه جهودهم ومقاييسهم في الضبط والتوثيق واصبحت كتب الصحاح والمسانيد هي المرجع في تعرف الأمة على سنة النبي وهديه. و عرفت مجموعة القواعد والضوابط والاصول التي وضعها العلماء لتمحيص الروايات والحكم عليها (صحة أو ضعفاً) بعلم مصطلح الحديث. ويعتبر هذا الفن باباً مهما من أبواب الثقافة الإسلامية يطلع المرء من خلاله على جهود الضبط التشريعي ومصطلحات العلماء في التوثيق والترجيح والنقل والرواية. ويعتبر ما كتب في علم مصطلح الحديث كلاما متكرراً في أكثر الكتب، فهذا العلم هو بيان لتاريخ التشريع وحفظ وتدوين السنة، ولا مجال لجديد في هذا العلم، فهو كما يقولون «علم نضج واحترق» ولا بد للمطلع على الثقافة الإسلامية من الالمام بمعاني مصطلحات هذا الفن التي ستطالعه عند خوضه في أكثر ابواب الثقافة الإسلامية من فقه وتفسير وأصول وتاريخ وغير ذلك.

٨ _ صنف أئمة علماء الحديث ما صح عندهم عن النبي صلى الله عليه و سلم مرتباً على أبواب وموضوعات جمع كل باب منها كل ما يتعلق بمعاني الباب، وذلك للتسهيل المنهجي الذي أملته طبيعة الجمع والتبويت. فأثبتوا كل ما ثبت عندهم بما فيه من تكرار ، ولم يكن من شأن علماء الحديث ولا من اهتمامهم الترجيح أو شرح ما يوهم التعارض، أو الاستنباط للاحكام من مجمل احاديث كل باب. وإنما تركوا ذلك للمشتغلين بالاستنباط من فقهاء الأمة.

فإذا أراد المبتدىء أن يطلع على الحديث النبوي بالقدر الذي يساعده على صياغة شخصيته بإطار من القدوة والأسوة بهدي النبي الكريم وانساق المبتدىء للوصول الى هذا الهدف التربوي المهم وراء الشهرة العلمية التي نالتها كتب الصحاح في الأمة، وابتدأ رحلته للتعرف على الهدي النبوي بأمهات كتب الحديث كصحيح البخاري أو صحيح مسلم، فإن ذلك ولا شك سيؤدي الى نوع من الحيرة والاضطراب. فكتب الحديث بمنهجها في التبويب والتصنيف لم تؤلف للمبتدئين. والمطلع على كتب الصحاح وشروحها من المبتدئين يجد نفسه مرة واحدة في مواجهة العديد من المسائل العلمية واللغوية بشكل قد يدفعه الى الملل وخيبة الأمل في امكانية تلبية مشاعر الاقتداء والتأسي والاتباع لسنة النبي صلى الله عليه و سلم .

وقد فطن بعض علماء الأمة الى هذه الملاحظة فصنفوا الحديث النبوي على منهج تربوي يهتم بصياغة المسلم في عقيدته وسلوكه ومشاعره وعبادته. صياغة قرآنية نبوية، تهتم بما أجمعت عليه الأمة من عقيدة وسلوك وأخلاق تميز المسلم وتعطيه هويته بعيداً عن الخلافيات ومعارك الجدل بين المدارس الفكرية والمذهبية.

ويعتبر ما جمعه الامام النووي في ــرياض الصالحينــ نموذجا ممتازاً للمنهج التربوي في الجمع والتصنيف، وقد لقي هذا الكتاب من القبول عند العلماء والمربين وجمهور الأمة ما يؤكد أهمية المنهج التربوي في الاستفادة من الحديث الشريف وخاصة للمربين الذين لا يعنيهم الخوض في دقائق ونكات اللغة والفقه والاصول، وانما يعنيهم أساسيات الإيمان و الأخلاق و مشاعر الحب وروابط التأسي والقدوة بالنبي وهديه وسنته.

الشريعة والفقه الإسلامي

أنزل الله تبارك وتعالى الرسالة الخاتمة على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه و سلم وأرادها أن تكون دين البشرية على اختلاف الازمنة والامكنة وعلى تنوع الظروف والشعوب ويقرر علماء المسلمين عند هذا الكلام أن ما جاءت به الشريعة هو الاطار العام الذي يمثل القواعد الاساسية التي تحفظ مقاصد الشريعة والتي يمكن للبشرية أن تتحرك ضمنها بمرونة ويسر وسهولة بما يحفظ المقاصد ويراعي أحوال الناس المختلفة وظروفهم المتغيرة.

وقد زخرت المكتبة الإسلامية بكتب الفقه الموسعة التي ترجمت فهم الفقهاء لطبيعة الرسالة الخاتمة حيث أثبت الفقهاء ما وصل اليه اجتهادهم في تطبيق القواعد العامة في الشريعة وأصول الاستنباط، وخرجوا بأحكام تعكس أو تعبر عن الاوضاع والظروف والشروط التي عاشتها الأمة في عصر التدوين . وقد كان الفقهاء من سلف الأمة على درجة عالية من المعرفة بالعربية والفهم لمقاصد الشريعة والاستيعاب لمدلول النصوص في الكتاب والسنة فتلقت الأمة اجتهاداتهم بالاطمئنان والتسليم والقبول. وقد عرفت القرون الثلاثة الاولى للهجرة عدداً كبيرا من الفقهاء المجتهدين ولكن لم يكتب لاكثرهم التلاميذ الذين يأخذون عنهم ويخدمون تراثهم بالتحقيق والتأصيل والتدوين والتوسيع، فاقتصرت المدارس الفقهية على أربع مدارس اقتسمت العلماء ومن ورائهم التلاميذ والمستفتين من جماهير الأمة.

وقد التزم العلماء بالفتيا من خلال المذاهب الاربعة التي كتب لها التحقيق والتخريج والتأصيل، ولم يكن في الامر كبير مشكلة، فطبيعة الحياة لم تتغير كثيرا عما كانت عليه في عصر الفقهاء، واذا حدثت بعض الوقائع الطارئة المستجدة كان بعض العلماء يصدرون بعض الفتاوى من خلال أصول مذهبهم وفهمهم لطبيعة الحياة وأحوال الناس والزمان. وجاء العصر الحديث وقد جدّت في حياة الأمة كثير من الامور تطلبت التحقيق والبحث لتحديد الموقف الشرعي من هذه الامور، وهنا حدث ما يمكن أن يسمى أزمة في الفقه والاجتهاد لتحديد الموقف من الامور الطارئة. ونظرا لما لهذا الموضوع من اهمية فان من الخطأ الاستعجال في اصدار الاحكام واتخاذ المواقف من هذا الامر قبل الإلمام ببعض المقدمات الهامة:

- حدثت التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في العصر الحديث في إطار هيمنة العالم الغربي ذي الاصول الثقافية النصرانية، وترافقت هذه التطورات مع حملة صليبية استعمارية شملت العالم الإسلامي من اقصاه الى أقصاه، فكان من الصعوبة بمكان التمييز بين الأمور التي فرضتها

الظروف الاستعمارية لتمييع الهوية الإسلامية ومعالم الثقافة الإسلامية، وبين التغيرات التي تطلبتها التطورات العلمية والثورة الصناعية وتطور وسائل النقل والاتصال وخاصة عندما يلح انصار التمييع الثقافي على اعتبار نتاج الحضارة الغربية العلمي والثقافي جملة واحدة أو مجموعة واحدة لا يمكن فصل بعضها عن بعض.

- في غياب القيادة السياسية الواعية وفي ظل الظروف الاستعمارية، اتخذ العلماء في العالم الإسلامي موقف الرفض للوجود الغربي في بلاد المسلمين سواء في ذلك الوجود العسكري والسياسي أو الوجود الثقافي، وكان العلماء ومن ورائهم جماهير المسلمين هم الوقود في معارك الاستقلال والحرية. وكان صعبا في الظروف التي صاحبت المواجهة والصراع التمييز بين السمين الأصيل النافع من المتغيرات، و بين الغث والخبيث ذي الاصول الغربية النصرانية.
- لا بد من لفت النظر الى التخلف العلمي الذي شمل العالم الإسلامي، ففي الوقت الذي كانت الحضارة الغربية تتمخض عن أهم اسباب القوة وتسخير الارض والموارد في دعم وجودها الثقافي، كان العالم الإسلامي في معزل عن معنى الكفاية، يعيش منكفئا على نفسه وقد ظن أن الامور ستسير على ما كانت عليه عشية الانتصار في الحروب الصليبية الاولى، وفتوحات الدولة العثمانية في أوروبا. فقد فقد المسلمون في عصور التخلف العلمي المقدرة على الاتصال الصحيح بالواقع والاحداث في العالم، وكان احترامهم للعلماء الاقدمين وما نقل عنهم من علوم الطبيعة وغيرها من العلوم التطبيقية، يحول _لا شعورياً_ دون التعامل مع الوقائع الخارجية للتحقق من صحة الآراء التي نقلها العلماء الاقدمون، فلم تأخذ العلوم التجريبية والتطبيقات العملية طريقها الى النظام التعليمي في العالم الإسلامي، مما أوقع الأمة في الوهن والبعد عن الكفاية.
- تعقدت مظاهر الحياة وتداخلت المؤثرات في الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بحيث يصعب على آحاد الناس الالمام والاحاطة الموضوعية بعناصر المشكلات لاعطاء فتوى أو حكم شرعي بشأنها، ويكاد يكون من الاعنات والاحراج مطالبة علماء الشريعة بحلول للمشكلات الواقعية اليومية الا أن يكون ذلك في إطار مؤسسات علمية متكاملة الخبرات. فإيجاد الإجابات الإسلامية لمشكلات الناس اليومية أمر يجب أن يتوجه اليه أهل الخبرة والاختصاص من المسلمين الذين يمتلكون المعرفة بمقاصد الشريعة ، وعندهم من الخبرة والمعرفة بالواقع مايمكنهم من اقتراح الحلول الممكنة عملياً. وتأخذ اقتراحات الخبير المسلم الصبغة الشرعية بعد عرضها على الفقيه المسلم الذي يمتلك الخلفية الفقهية الأصولية التي تمكنه من إلحاق المسائل بأصولها وأشباهها ونظائرها.

- الشريعة حاكمة على الإجابات والاقتراحات العملية وليست منشئة لها، فالذي يتوجه لايجاد الحل لأية مشكلة هو صاحب الخبرة والمعرفة أما صاحب المعرفة بالشريعة فدوره لاحق لابداء الرأي واقتراح التعديل أو التصويب لبعض الأخطاء من حيث «الإطار الدستوري» إن صح القول. و لا بد لحملة الشريعة من إدراك هذا الأمر فتأمين الكفايات مسؤولية الجميع ، و ليس من الخير النظر إلى أصحاب المهارات و الكفاءات على أنهم عوام و رعاع و طغام لأنهم لم يدرسوا تفاصيل و إجرائيات استنباط الأحكام ، بل هم معيار الفهم الصحيح لواقع الأمة و ما يمكن أن ينجح فيه من المعالجات و كيفيات تنزيل قيم الدين و مقاصد الشريعة . و وضع المسألة في هذا الاطار يضع الأمة كلها على اختلاف خبراتها ووسائلها في مواجهة مسؤولياتها والتصدي للتحديات والبعد عن القاء التبعة على العلماء بالشريعة وحدهم أو لوم جمودهم وتقصيرهم . فأكثر الخلاف في تطبيق الشريعة يرجع إلى الخلاف في فهم الواقع و ما يصلحه أو يصلح به و ليس إلى خلاف في القيم أو الإلتزام بهدي القرآن و سنة النبي الكريم صلى الله عليه و سلم .
- قد يكون في تراث بعض المدارس الفقهية ما يمكن أن يعتبر من التشدد والإحراج في الحكم على بعض المشكلات أو الوقائع. ويجب الحذر هنا من المضي مع الاهواء والتقديرات الشخصية. ولا بد من استفتاء الفقيه المسلم الخبير الذي لا يجري مع الهوى ويعطي المصلحة الراجحة حقها من الاعتبار. فالتدين هو الرخصة من فقيه أما التشدد فيحسنه كل احد.
- الفتوى مسؤولية وأمانة، وبعبارة الامام ابن القيم هي «توقيع عن رب العالمين»، ولا بد لتحمل هذه المسؤولية واداء هذه الامانة من التسلح بالوعي والعلم والدراية والاناة. والتسرع في الفتوى بغير علم ينطوي على مخاطر «واجرأكم على الفتوى اجرأكم على النار».

التاريخ الإسلامي
والتفسير الإسلامي للتاريخ

دراسة التاريخ هو الذي يحدد هوية الأمة وثقافتها وقيمها وموازينها. والتاريخ هو الذاكرة الحية التي ترجع اليها الأمة في الازمات، فتغنيها عن بذل الجهـــد والوقت مرة اخرى في اكتساب خبرات جاهزة في التاريخ تنتظر من يأخذها ويحدد اختياره للمواقف والافكار من خلالها.

«وليس الخلاف حول تفسير التاريخ ظاهرة ترف ولا مجرد خلاف حول تفسير الماضي.. بل هو في الدرجة الاولى خلاف حول الطريق الى المستقبل، فالامم دائماً تفزع الى تاريخها في لحظات محنتها تستمد منه العزيمة والدعم النفسي، بينما يلجأ خصومها الى تزييف التاريخ وتشويهه لتضليل الحاضر وإفساد الطريق الى المستقبل». ونظراً لما لهذا الموضوع من أهمية فقد كثرت الكتابات والدراسات حول التاريخ الإسلامي وتعددت وجهات النظر في التحليل وكثرت الاكاذيب والافتراءت وصار من الضروري اثبات بعض المقدمات التي تعين الدارس على تجنب المزالق والاخطاء وتجعله قادرا على الاستفادة من التاريخ وتوظيفه في توجيه المستقبل على هدى تجارب الماضي وخبراته ودروسه.

- عند الحديث عن التفسير الإسلامي للتاريخ يجب التأكيد على أن التفسير الإسلامي لا يعني بحال التنطع بإقحام أسباب غير واقعية لاي حدث لاستنتاج دروس جاهزة ومقررة مسبقا عند التعليق على الاحداث ومحاولة ربط اسبابها ومقدماتها بنتائجها. إن التفسير الإسلامي للتاريخ والاحداث ليس إخراجا إسلاميا لطريقة الماركسيين في التفسير المادي للتاريخ حيث يعمدون الى احداث التاريخ لابراز ما يريدون منها ولانطاقها بشهادة تدعم ما في عقولهم من رأي مسبق ونتائج مقررة. أن مواجهة الاحداث بذهن مبرمج بنوع من التفسيرات الجاهزة تفقد الدارس الموضوعية وتفقده القدرة على الاستفادة من شمول الاحداث لنواحي النشاط الانساني المعقدة المتشابكة.
- التاريخ ــ كغيره من العلوم ــ يحاول كشف السنن حتى يستطيع تفسير الاحداث ويتعرف الى كيفية تغير المجتمعات وزوال الحضارات ونشوء الدول. وذلك لتكون القوانين والسنن المكتشفة عدة المستقبل لتجنب الاخطاء التي وقعت بها الامم من قبل، أو لتسديد الخطأ باتجاه الهدف المرسوم، أو للتنبؤ بما سيكون في المستقبل انطلاقا من الاوضاع السائدة والظروف المحيطة. وقد حرص القرآن الكريم في مواضع متعددة على حث المؤمنين على السير في الارض والنظر الى عاقبة

المجرمين والمكذبين، والنظر في سنة الله في الذين خلوا من قبل.. تلك السنة الثابتة المستقرة التي لا تجد لها تبديلا ولا تحويلا. فإذا علم المؤمن سنة الله في التغيير، عمل فيما يجدي دون أن يحقر ما هو فيه من عمل مهما كان بسيطا، و لم يطمع في ازالة الجبال في ساعة.

- لا تنحصر الاسباب لاحداث التغيير ــ في نظر المسلم ــ بالاسباب المادية وحدها فإن من وراء الاسباب المادية اسباباً وسنناً غيبية تضخم الاسباب المادية وتزيد من تأثيرها ولكنها لا تستقل ولا تنفك عن الاسباب المادية. لقد أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد ما يستطيعون من قوة. ووعدهم العون والامداد والنصر إذا التزموا وتحققوا بأمرين: **أحدهما** أن لا يهملوا ولا يتركوا أو يتهاونوا بسبب ممكن من الاسباب المادية الظاهرة مهما كان صغيرا أو تافها. **و ثانيهما** أن لا تتعلق قلوبهم بما أعدوا من أسباب ولا يركنوا ويطمئنوا الى ما احرزوا من قوة، بل تتعلق قلوبهم بنصر الله ومدده وعونه في حال من الخوف والإشفاق والخضوع والابتهال والتبتل.

فإذا حقق المؤمنون هذين الامرين مكنهم الله أن يصلوا بأسباهم المتواضعة الى نتائج تفوق وتتجاوز مألوف الناس في عالم الاسباب وذلك لتدخل سنة غيبية أخرى يعرفها المؤمنون وينكرها الماديون المطموسون.

وهنا يجب التأكيد على التلازم بين عمل مدد الله الغيبي وبين إعداد ما يمكن إعداده في عالم الاسباب دون تقصير أو تفريط أو غفلة أو تهاون. الامر الذي يغفله أكثر المتحدثين عن عمل القوى الغيبية في احداث التغيير في التاريخ الإسلامي وخاصة في أحداث القرن الأول الهجري.

- هناك خطأ شائع في تناول احداث التاريخ وتحليلها، فكثير من الناس يعمدون الى حصر الاسباب في حادث معين في سبب واحد لا يتعداه، أو أنهم يذكرون ذلك السبب ولا يذكرون سواه، وفي ذلك تشويه لحقيقة التاريخ ومسخ لها. وأقل ما ينتج عن مثل تلك النظرة القاصرة أن صاحبها سيتخذ ذلك منهجا في تخطيط حياته ومستقبله فتراه لا يستطيع من الاستفادة من الفرص المتاحة والامكانيات المتوفرة إذا وقعت تلك الفرص والامكانيات خارج ما حصر فيه اهتمامه وانتباهه. إن النفس البشرية والحياة والانسانية مزيج معقد من المشاعر والافكار والدوافع وان محاولة فهم الانسان عن طريق واحدة من هذه العناصر لن يأت الا بنتيجة قاصرة مبتورة. والحياة البشرية بتداخلها وتشابكها لا يمكن أن تدول حول محور واحد، وإنما تفهم الحياة على انها تعاون اكثر من محور، وتداخل اكثر من عملية ليكون من وراء ذلك كله تلك الحياة الانسانية الزاخرة بالنشاط والتي لا تتجمد في قالب واحد أو حول محور واحد.

وقد يبدو في فترة من الفترات أن أحد المحاور في الحياة الانسانية المعقدة هو الذي يقوم بالدور الاكبر ولكن ذلك لا يعني أن المحاور الاخرى قد توقفت عن الحركة والتأثير تماما. ويعتبر ما كتبه العلامة ابن خلدون عن العصبية القبلية ودورها في مسيرة الدولة المسلمة الاولى مثالا جيداً عما قدمناه عن تعدد المحاور ودورها في صنع احداث التاريخ. لقد طغت بركة الوحي والرسالة على كثير من العوامل في المجتمع المسلم الاول، ولكن جيلا واحدا بعد عصر النبوة أعاد العصبية الى التأثير وصناعة الاحداث التي أدت الى قيام دولة بني أمية وسقوطها على يد العباسيين وما تلا ذلك من أحداث.

- تضخم كتابات التاريخ دور القيادة في صنع أحداث التاريخ، واذا كان دور القيادة الحكيمة لا ينكر في توجيه الاحداث والتأثير على سلوك الناس، فإن المبالغة في إبراز دور القيادة والتغافل عن الجو العام والامكانيات والنماذج البشرية المتوفرة ينطوي على خطر محقق حيث ينتظر الناس القائد الملهم الموهوب وينسون مسؤوليتهم في إعداد الخبرات والامكانيات التي تتحرك بها القيادة الحكيمة – عند وجودها – وتستفيد منها وتوظفها.
- كتابة التاريخ الإسلامي تحتاج الى إدراك طبيعة الفكرة الإسلامية ونظرتها الى الحياة والاحداث والاشياء، ووزنها للقيم، وتأثيرها في الارواح والعقول وصياغتها للنفوس والشخصيات ودراسة الشخصيات الإسلامية تحتاج أو تقتضي إدراكا كاملا لطبيعة استجابة الشخصية الإسلامية لايحاءات الفكرة الإسلامية. لهذا لا بد من البيان للنقص الطبيعي الذي تتصف به دراسات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، هذا النقص في الادراك والفهم والتفسير والتصوير الذي يجعل المنهج الغربي في كتابة التاريخ غير صالح لتناول الحياة الإسلامية والدراسات الإسلامية.
- « لم يبدأ تدوين التاريخ الإسلامي الا بعد زوال بني أمية وقيام دول لا يسر رجالها التحدث بمفاخر ذلك الماضي ومحاسن أهله، فتولى تدوين التاريخ ثلاث طوائف: طائفة تنشد العيش والجدة بالتقرب الى مبغضي بني أمية بما تكتبه وتؤلفه، وطائفة ظنت أن التدين لا يتم ولا يكون التقرب الى الله تعالى إلا بتشويه سمعة أبي بكر وعمر وعثمان وبني عبد شمس جميعاً، وطائفة ثالثة من أهل الإنصاف والدين ـــ كالطبري وابن عساكر وابن الاثير وابن كثير ـــ رأت أن من الإنصاف أن تجمع أخبار الإخباريين من كل المذاهب والمشارب،.. وقد أثبت هؤلاء أسماء رواة الأخبار التي أوردوها ليكون الباحث على بينة من أمره وعلى بصيرة من كل خبر بالبحث عن حال راويه، وقد وصلت الينا هذه التركة لا على أنها تاريخنا، بل على

انها مادة غزيرة للدرس والبحث يستخرج منها تاريخنا». «ولم يقتصر الامام الطبري في تاريخه على المصادر الموثوقة والاخبار الصحيحة التي اخذها عن شيوخه واساتذته الموثوقين ولكنه اراد أن يقف قارئه على مختلف وجهات النظر،فأخذ عن مصادر أخرى قد لا يثق هو بأكثرها، إلا انها تفيد عند معارضتها بالاخبار القوية، وقد تكمل ما فيها من نقص... وقد قال الحافظ بن حجر: أن الحفّاظ الأقدمين يعتمدون في روايتهم الاحاديث الموضوعة مع سكوتهم عنها، على ذكر الاسانيد لاعتقادهم أنهم متى أورودوا الحديث بأسناده فقد برئوا من عهدته وأسندوا أمره الى النظر في اسناده.. فشعار الطبري اذاً: العهدة على الراوي» (*أضواء على التاريخ الإسلامي، فتحي عثمان*).

- في التاريخ الإسلامي نقاط سوداء وأخطاء وقع فيها المسلمون، وتناول أحداث التاريخ بعين الناقد البصير يجب أن ينبني على أمر أساسي هو أن المسلمون في أي عصرهم بشر من البشر يخطئون ويصيبون، وإن من الوهم أن نفهم التاريخ الإسلامي على انه تاريخ للملائكة لا نقص فيه ولا خطأ ولا انحراف.. وان من الواجب الفصل بين الإسلام كمبدأ وعقيدة وقاعدة ثابتة لا تتغير.. وبين المسلمين عبر التاريخ والذين يمثلون تجارب ونماذج من التطبيق لتلك العقيدة.

فالمسلمون يبتعدون مرة ويقربون اخرى، ويرتفعون بالإسلام تارة، ويهبطون بالبعد عنه أو عن مقتضياته اخرى. إن على المرء أن يفرق بين المبدأ الإسلامي وتطبيقه، والا يصير المسلك الذي سلكه المسلمون طاغيا على المبدأ الإسلامي بحيث يصبح هذا التاريخ هو الإسلام، ونقف منه موقف من يظن أن كشف الخطأ في هذا التطبيق هو كشف لخطأ في الإسلام! وبدون هذا التفريق تصير اخطاء المسلمين عبر التاريخ ديناً نضطر أن نتمسك به ويعجزنا تقديسها عن كشف حقيقة المبدأ الإسلامي.

إن تاريخنا طيلة أربعة عشر قرنا كان تاريخا لمجتمع مسلم.. كان يخطئ ويصيب، ويرتفع ويهبط ونحن اذا فتحنا أعيننا للغظة والعبرة استفدنا من خطأ من أخطأ، وتعلمنا من صواب من أصاب ولا يؤثر ذلك في نظرتنا لاقدار الرجال واحترامنا لهم لخطأ بدر منهم أو أُثِر عنهم، ودون أن يفسر كشف الخطأ على أنه نوع من الادانة للتاريخ الإسلامي وتجريح شخصياته وزلزلة الثقة بالمبدأ الإسلامي وقدرته على صياغة الشخصيات العظيمة.

الصوفية

أثارت الصوفية الكثير من الجدل حول بعض الافكار أو الممارسات التي عرفت عن الصوفية ومدارسهاوطرقها المتعددة. ولما كانت الفكرة الاساسية وراء الصوفية – كما يؤثَر عن دعاتها و مؤيديها – تزكية النفس وتربيتها على الزهدوالورع والاستعداد بزاد التقوى ليوم الحساب، لا يشك أحد في وجاهـــة هذه الأهداف ، ولكن الوسائل لتحقيق هذه الاهداف لم تكن دائما لتسلم من النقد والإدانة للتورط بالخروج من السنة الى البدعة أو مزج الإسلام بما ليس من طبيعته من وسائل الملل الأخرى فيما تمارسه من وسائل قهر للجسد أو إهمال النظر في شؤون الأمة!

ونظراً لان هذا النقد والإدانة لبعض ممارسات الصوفية قد تجاوز العدل الى المبالغة والتحامل كان لا بد من إثبات بعض المقدمات الهامة عن الصوفية والتصوف تخرج الدارس للثقافة الإسلامية عن مبالغات رد الفعل الى العدل والانصاف والتوازن.

- تحتوي كتب المتصوفة المنسوبة الى كبار مشايخ الصوفية على عبارات موهمة أو عبارات صريحة يفيد ظاهرها مصادمة واضحة لما ثبت في الشريعة أو لما علم من الدين بالضرورة. ويلجأ المدافعين عن الصوفية الى التأويل البعيد لصرف هذه العبارات عن ظاهرها الى ما يمكن أن يلائم الشريعة، أو الى ادعاء أن هذا الكلام مدسوس على مشايخهم منتحل مدخول من قبل اعداء الصوفية أو اعداء مشايخ الصوفية. وهنا لا بد من بيان أمرين هامين:

١. لا يسوغ التأويل البعيد للعبارات الموهمة ولا بد من البيان للرأي الشرعي في امثال هذه العبارات، ولكن بين بيان الرأي الشرعي وبين اطلاق ما ينبني على هذه العبارات من احكام فرق كبير، فالقول بأن هذه العبارة كفر صريح أو مصادمة لما علم من الدين بالضرورة يخرج من عهدة البيان ويترك الامر واضحا لا لبس فيه، أما القول بأن فلان بن فلان كافر أو فاسق فإن ذلك لا يزيد في امر البيان شيئا ويفتح الباب واسعا للجدل والعصبية.

٢. لا يجوز إطلاق احكام الكفر والفسق على من يحسن الظن بمن تنسب اليه العبارات الموهمة أو الخارجة عن الشريعة، فأكثر هؤلاء يعوزهم العلم والفهم وليس عندهم إلا محبة الصالحين والاولياء والعلماء، فالترفق معهم والتعليم أولى من الاتهام بالكفر والفسق وهم لا يفهمون

ذلك الا عصبية أو حزبية موجهة ضد من احبوهم في الله، مما يوقع الوحشة ويصد عن العلم والفهم.

- تحتوي كتب المتصوفة على الكثير النافع من العلم الذي يفتح باب الفهم لأمراض النفس وعيوبها ومداخل الشيطان عليها، وكذلك تحتوي هذه الكتب على ما يفتح باب الفهم والبصيرة لخطرات النفوس ووساوس الأفكار، ويعتبر هذا النوع من الدراسة أمراً أساسياً لمن يشتغل بأمر التربية والدعوة وخاصة اذا امتلك البصيرة الشرعية التي تمحص بعض ما يترخص فيه المتصوفة من الاعتماد على ضعيف الاخبار.
- يكثر الحديث في كتب المتصوفة عن الخوارق والكرامات كثرة مستغربة تخرج الخوارق من الشذوذ الى القاعدة وتجعلها _بكثرتها_ مصادمة لثبات السنن والنواميس الكونية. واذا كان أصل الكرامات لا ينكر، فلا بد من إثبات ما ينضبط به هذا الامر. وننقل هنا ما ذكره الامام الشاطبي في الموافقات «من أن جميع ما أُعطيته هذه الأمة من المزايا والكرامات والمكاشفات والتأييدات وغيرها من الفضائل إنما هي مقتبسة من مشكاة نبينا محمد صلى الله عليه و سلم لكن على قدر الاتباع» ثم قال «ومن الفوائد في هذا الأصل أن ينظر الى كل خارقة صدرت على يدي أحد فان كان لها أصل في كرامات النبي ومعجزاته فهي صحيحة وان لم يكن لها أصل فغير صحيحة وإن ظهر ببادىء الرأي أنها كرامة».
- ثبت تاريخيا أن جماعات الطرق الصوفية كان لها الفضل في مد رقعة العالم الإسلامي الى شرقي آسيا وإندونيسيا والى ما وراء الصحراء الافريقية، وقد تمت الرحلة الى الإسلام الكامل خلال أجيال متعددة امتدت في بعض الأصقاع الى اكثر من قرنين. وقد أبدى الصوفية خلالها من الصبر والتسامح الشيء العجيب. ولا تزال مظاهر الخلط بين الإسلام وبعض العادات أو التقاليد الوثنية ظاهرة حتى الآن في افريقيا أو جزر اندونيسيا، تنتظر من يبذل الجهد بالتعليم والتوجه وكذلك تولت جماعات الطرق الصوفية مسؤولية الجهاد لنشر الإسلام أو لمقاومة المحتل في عدد من البلاد الإسلامية في افريقيا وآسيا.

وما نريد إثباته هنا من خلال هذه الرؤية التاريخية أن الضيق ببعض الثغرات الفكرية أو الثقافية والغلو في التأكيد على ما تقتضيه هذه الثغرات من أحكام تخرج مجموعات بشرية هائلة عن الأمة... إن هذا الضيق وهذا الغلو لا يستقيم مع ما أثبته التاريخ لجماعات الصوفية من دور مشرف على ساحة الدعوة والجهاد وان من الاولى أن يكف المرء عن تتبع عبارات الغلو والإيهام

في تراث الصوفية وأن يبذل الجهد على التعليم والتوجيه والرفق والتلطف، وخاصة وأن أمر المغالين من أصحاب الشطحات الى اضمحلال وزوال كلما انتشر العلم وترك الناس الجدل والمراء حول ما نسج حول مشايخ الصوفية من هالات العظمة والقدسية، وأن من المفيد أن نذكِّر اصحاب اللهج والولع بذكر المناقب والانتساب اليها، أو أصحاب اللهج بذكر المثالب والتنزه عنها... إن من المفيد أن نذكر بقول سيد التابعين لمن طلب منه أن يصنف في مناقب عثمان ومثالب علي رضي الله عنهما: «لو كان لعثمان رضي الله مناقب أهل الارض ما نفعتك، ولو كان لعلي رضي الله عنه مثالب أهل الارض ما ضرتك، فعليك بخويصة نفسك والسلام».

- تكثر الروايات عن عبادة وأحوال الصالحين واهتمامهم بإصلاح انفسهم والاخذ بالعزائم في العبادات ونسيان حظ النفس في ذلك كله، ويجب في أمثال هؤلاء الصالحين الكف عن الخوض فيهم واتهامهم بالغلو والتنطع فإن لهم أحوالا تخرجهم عن مقتضى الامر بالنهي عن المشقة والحرج، وخاصة اذا لم يكن في اعتبار أحوالهم ما يضعهم في حال العبادة في منزلة أعلى وارفع من حال سيد العباد صلى الله عليه و سلم الذي استوعب مجالات الكمال بتوازن واعتدال.

الفكر الإسلامي الحديث

أفاق العالم الإسلامي في القرن الماضي على ضربات مدافع الغرب تضرب بعنف أبواب العالم الإسلامي ما بين المغرب الى اندونيسيا، وتبين المسلمون مدى التخلف العلمي والصناعي الذي فتح عليهم باب الفتنة بالغرب وقيمه وأخلاقه، وفتح عليهم باب الاحتلال والاستعمار الذي أهلك الحرث والنسل ونشر الفساد في الارض. ولم يكن النظام التعليمي عند المسلمين قادراً على الصمود، ولم يكن العلماء بما أَلِفُوه من طرق في البيان والتأليف قادرين على سد باب الفتنة، فكان لا بد من التجديد في الأسلوب والموضوع لمعالجة الخَطْب وإعادة الثقة بالإسلام كعقيدة وشريعة الى المسلمين.

والمغلوب – كما يقرر ابن خلدون ــ مولع بتقليد الغالب في كل شيء من احواله ولباسه وقيمه، وقد ظهرت فئة من الكتاب والمثقفين تدعو الى التغريب واللحاق بالغرب كطريق وحيد لمعالجة التخلف الذي ضرب الأمة و أوقعها في الجهل والمرض والاحتلال.

وفي مقابلة التيار الذي يغري بتقليد الغالب ودعوات التغريب وقف علماء المسلمين لدرء الفتنة وإعادة الثقة الى الإسلام كطريق للنهضة ومقاومة التحديات. ولم تكن المهمة سهلة فقد وقعت الهزيمة والإسلام ــرسمياًــ هو دين الأمة وهويتها، والخلافة تجمع المسلمين وتحظى بولاءهم ونصرهم باسم الإسلام. وقد بدأ العلماء مهمة إعادة الثقة بالدراسات التاريخية التي تتحدث عن أمجاد الإسلام وأبطال الإسلام ومنجزات حضارة الإسلام، ثم بالدراسات اللغوية والإنتاج الأدبي الذي يربط الناس باللغة العربية كعامل مهم في التميز والاعتزاز بتراث الأمة وهويتها.

وبالاضافة الى الجهود الرامية الى إحياء التراث والاستفادة من طبع ونشر أمهات الكتب في الثقافة الإسلامية، فقد بدأ العلماء الكتابة عن الفكر الإسلامي ومحاسن الإسلام وميزاته، والرجوع بالهزيمة والضعف والوهن الى اسبابها الرئيسية المتمثلة في التخلف عن فهم حقيقة الإسلام والتخلف عن التطبيق العملي لمقتضيات الإسلام. وقد تميزت كتابات المرحلة الاولى من الكتابة عن الفكر الإسلامي بنوع من صبغة رد الفعل للحضارة الغربية الغالبة، فالحديث عن ميزات الإسلام وفكره وتشريعه اتخذ أسلوب المقارنة بالثقافة الغالبة مقارنة تجعل الغرب هو المقياس والمرجع، فليس هناك من ضرورة للافتتان بالغرب، وفي الإسلام ميزات الغرب وعناصر قوته وتفوقه ولكن المسلمين تخلفوا عن المعرفة والتطبيق العملي لمقتضيات هذه المعرفة. وكانت كتابات هذه الفترة تهمش وتكثر من النقول عن المستشرقين والمهتمين

بالدراسات والأوضاع الإسلامية عندما يصدر منهم قول فيه رائحة انصاف أو تقريظ لعنصر من عناصر الثقافة الإسلامية أو التاريخ الإسلامي.

ثم انتقل الفكر الإسلامي الحديث مع بدايات الصحوة الإسلامية الى موقع جديد، فقد اتخذت الدعوة أسلوب التعبير الذاتي عن الإسلام دون مقارنة تضع الغرب في موضع القدوة والمرجعية.

وكذلك انتقل الطرح الجديد للفكر الإسلامي الى مواقع النقد والبيان لسوءات النظام الغربي بشطريه الرأسمالي والشيوعي والبيان للحل الإسلامي كبديل وحل لثغرات الانظمة الغربية ومشكلاتها . وقد نجح رواد الفكر الإسلامي في درء الفتنة وإعادة ثقة الأمة بالإسلام وتشريعاته، ونجح رواد الفكر الإسلامي في بيان مفاسد دعوات التغريب والحلول المستوردة. واستقطب الفكر الإسلامي الشباب المثقف في المعاهد والجامعات بعد أن كانت دوائر التغريب والتخريب الثقافي قد اطمأنت الى بوادر النجاح في صرف الأمة عن دينها وهويتها من خلال مناهج التعليم العلمانية. ورغم الغزارة والخصوبة التي تمتع بها الفكر الإسلامي. لا بد من إلقاء بعض الاضواء على هذا الفكر وآثاره في الأمة ليكون الدارس على بينة من بعض المشكلات التي صاحبت تطور هذا الفكر وانتشاره.

- نجح رواد الفكر الإسلامي في طرح أساسيات وعموميات التشريعات الإسلامية بشكل يقطع الطريق على دعاة الفتنة ودعاة التغريب ويعيد الثقة والاعتزاز الإسلام الى جماهير المثقفين. و لم يكن من شأن هؤلاء الرواد أن يهتموا بالتفصيلات التنفيذية العملية لما جاءوا به من عموميات، وحسبهم أنهم طرحوا المفاهيم الإسلامية بشكل معاصر مفهوم، وفتحوا الطريق أمام العاملين للاسلام ليعملوا على بصيرة ووضوح.
- وكان أن تتلمذ على فكر هؤلاء الرواد فئات من المثقفين ومن العاملين في الحركات الإسلامية وهنا برزت الى ساحة الفكر الإسلامي بعض المشكلات والأزمات. فــقد وقع فريق من العاملين في الحركات الإسلامية بنوع من المغالاة والمبالغة فاعتبروا إنتاج هؤلاء الرواد هو نهاية المطاف يبدؤون فيه ويعيدون دون أن ينتقلوا من مرحلة البناء الاساسي لفكر الشباب المسلم الى المرحلة الثانية التي تعطي البصيرة العملية في إنتاج الدراسات الاختصاصية والتي تضع فكر الرواد في الإطار العملي القابل للتطبيق.
- ووقع فريق آخر من العاملين في الحركات الإسلامية بنوع من المغالطة إذ وضعوا فكر وإنتاج الرواد في مقابلة العلماء والمشايخ، مما أوقع البعض في الإنتقاص للعلماء أو غمطهم حقهم، مما أثار حفيظة العلماء وحرم جماهير الأمة التي تلتف حول العلماء من الإستفادة والإفادة من

الحركات الإسلامية، مما سهل على الطواغيت عملية محاصرة الحركات الإسلامية وضربها وتصفيتها.

- ووقع فريق آخر من العاملين في الحركات الإسلامية بنوع من الخطأ المنهجي إذ اعتبروا بعض ما فهموه من كلام رواد الفكر الإسلامي أحكاماً شرعية يحاكمون الناس اليها، في الوقت الذي لم يرد عن المفكرين المسلمين أمثال هذه الاحكام المستنبطة بمثل هذه الطريقة الغريبة، مما زاد في الفجوة بين العلماء ومن وراءهم من الجماهير وبين المثقفين المتتلمذين على فكر رواد الفكر الإسلامي.
- و قد وقع بعض الشباب المسلم المثقف في الحزبية والعصبية، هذه الحزبية والعصبية التي تجعل الانتماء الحزبي هو مقياس القبول والرفض للافكار أو النقد أو النصيحة. فقد أصبح الإنتماء الحزبي عند بعض هؤلاء بديلاً عن الشعور بالإنتماء إلى الأمة و الإحساس بما تواجهه من أزمات و تحديات .
- وقع بعض المثقفين بأخطاء الانفعال ورد الفعل لظروف المواجهة مع السلطة أو الثقافة الغربية والوجود الغربي في بلاد المسلمين فانطبعت افكارهم بالغلو والتشدد والخروج عن التوازن . و كان أخطر مظاهر الغلو التكفير و الغضب و الحنق على جماهير الأمة التي اتهمت بالممالأة للظالمين و كأن الأمة هي المسؤولة عما وقع ببعضهم من الظلم و العسف .
- آلت السلطة بعد الاستقلال في البلاد الإسلامية الى دعاة التغريب وكانت الحركات الإسلامية ومن ورائها الكتاب والمفكرون في المعارضة الفكرية والسياسية التي كانت تخوض معركة التمييع والتزييف الثقافي مع دعاة التغريب. وقد أثر هذا الوضع الشاذ على طبيعة التفكير عند الكتاب والحركات الإسلامية، فقد غلب التهييج العاطفي والحماس وغاب التقييم الصحيح لبعض مقتضيات الحياة العملية والتي ليست بالضرورة نتيجة عن قصد التغريب أو دفع الأمة الى التبعية الثقافية والسياسية للغرب. وقد ساهم هذا الموقف في زيادة البعد عن الكفاية والاعداد للكفاية في كثير من فروع العلوم والخدمات والاهتمامات العامة، وخاصة عندما يعود الحديث الى الماضي وأمجاده والى السلف وايمانهم وتقواهم كلما تناول الحديث مشكلة معاصرة أو ازمة طاحنة، حتى غدا الحديث عن الماضي مادة للالهاء ولفت نظر الأمة عن الاخذ بأسباب القوة والبدأ بالخطوات العملية الاولى على طريق النهضة والكفاية. و زاد من مشكلة البعد عن الكفاية والإعداد للكفاية الظن أن الوقوف على هذه الثغرة نابع عن التأثر بمناهج الفكر الغربية أو استعارة قوالب الفكر الغربية.

والذي نود إثباته في هذا الدليل هو أن الانتفاع بفكر الكتاب المعاصرين أمر أساسي في البناء الفكري والتحصين الثقافي ولا بد مع هذا من الانتباه الى آفات العصبية والحزبية وردود الفعل، و لا بد كذلك من استشارة اهل العلم والدراية عند مواجهة المشكلات والمعضلات، ولا بد من الاهتمام بالدراسات التطبيقية والتنفيذية التي تهيىء الأمة لتحقيق الكفاية أو الاعداد للكفاية بجدية ودأب.

ولا بد من الاشارة الى أن الحوار والمناقشة والاستماع الجاد، والبعد عن الانكفاء على النفس والتشرذم في سراديب السرية والحزبية يفتح الطريق لتصحيح الفكر وتقويم السعي للسير بالفكر الإسلامي الى غايته وأداء وظيفته كقائد وحادٍ لمسيرة العمل الإسلامي والحركات الإسلامية الى نشر الإسلام والدعوة الى الالتزام بمقتضياته.

العـــلـــوم التـــطبـــيـــقـــية

تقرر الشريعة فرض الكفاية بشكل يعطي معنى الشمول للدين، فحاجات الأمة في ضروريات الحياة اليومية وعمارة الكون وتحقيق الامن ـــ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ـــ هي واجبات دينية يؤديها المرء وله عليها الاجر والثواب، أو تتقاعس الأمة عنها فتنال جزاءها ضعفا ووهنا يسلط عليها أعداءها في الدنيا وإثماً يترتب عليه اللوم والعقاب في الآخرة.

وقد عاشت الأمة دهراً وهي تتمتع بالكفاية والتفوق، حتى إذا غفلت وسبقها أعداؤها في العلوم والمعارف التي تمكن من تسخير طاقات الكون ابتليت بتسلط الاعداء الذين عاثوا في الارض فساداً، حتى إذا ما تحررت البلاد من تسلط المستعمر وأخذت تنشد أسباب القوة والتمكين كان من أول ما انتبهت اليه تحصيل العلم والمعارف، ففتحت المعاهد والجامعات، وابتعثت الطلاب الى الغرب، وصرفت الاموال الطائلة في هذا السبيل.

وكانت حصيلة السعي الى تحصيل العلوم والمعارف في عكس الاتجاه الذي أرادته الأمة. فالكفاية لم تتحقق والأمن الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لم يتحقق بل ازداد اعتماد الأمة على أعدائها في كل أساسيات الحياة. وكانت أفواج المتعلمين غير قادرة على التعامل مع الظروف المحلية، وغير قادرة على الاعتماد على الموارد المحلية، وغير قادرة على تطوير الطرق المحلية التي كانت تؤمن الكفاية في كثير من النواحي. فاقتصر دور المتعلمين على تثبيت وتأصيل المستورد في كل شيء والدعاية له، وكأنهم عملاء ثقافة أجنبية يروجون بضاعتها ويحمون مصالحها. وقد زاد الامر سوءا أن تطورت في الناس عادات استهلاكية جديدة، تهش للمستورد الاجنبي وتضيق بالطرق التقليدية في قضاء الحاجات اليومية فاختفت من الأمة شريحة من الفنيين والعمال الذين كانوا يؤمنون الكفاية في بعض الثغرات.

واستمر النزيف الاقتصادي في الأمة وزاد اعتمادها على مصانع ما وراء الحدود فانتشر التضخم المالي والغلاء وانتشرت البطالة والفقر. وتبع النزيف الاقتصادي نزيف فكري أو ما يسمى «هجرة الادمغة» فكثير من المتعلمين والاختصاصيين لم يجدوا في بلادهم الظروف التي تؤمن لهم استخدام ما تعلموه من طرق مرتبطة بنظام اقتصادي وثقافي غربي، فقرروا الهجرة والاقامة في الغرب حيث أعطاهم الاستبداد السياسي في بلاد المسلمين المبرر الاخير لتسويغ قرار الهجرة والرحيل عن البلاد الى غير رجعة. لقد كان الامر ملتبساً بين التحديث والتغريب، فالتحديث هو امتلاك العلوم والمعارف والتكيف مع ظروف البيئة والثقافة والموارد المحلية لصياغة الحلول للمشكلات الواقعية والرد على تحديات البيئة والعصر. والتغريب

هو امتلاك العلوم والمعارف من مصادرها الغربية وإطارها الثقافي والاقتصادي مع الغفلة عن متطلبات البيئة والثقافة المحلية مما ينتج تبعية وبعدا عن الكفاية واعتماداً على المستورد في كل شيء حتى تفقد الأمة استقلالها وحريتها.

واذا كانت معالجة هذا الامر الخطير لا تقوم لها جهود الافراد والمصلحين، فلا بد من رسم سياسة عليا تأخذ بيد المؤسسات في الدولة لصياغة الأمة بشكل يعدها لتطبيق هذه السياسة والايمان بها والنصح لها.

وللأسف لم تكن القيادة السياسية في بلاد المسلمين واعية لمثل هذا القرار الخطير، فاتجهت الأمة باتجاه التغريب، واتخذ الدعاة الى الإسلام والحركات الإسلامية موقف المعارضة السلبية ــ إن صح القول ــ فالشجب واللوم والاعتراض لسياسات وممارسات الحكومات لانها لم تأخذ بالخط الإسلامي في تدبير شؤون الحكم والسياسة ومن جهة أخرى عطالة مستحكمة تحول دون طرح بديل عملي واقعي للازمة التي تعانيها الأمة من منظور اسلامي شامل وعطالة وتقاعس عن تدريب الأمة على مستلزمات البديل الإسلامي ــ الذي يفترض نظريا انه يحتاج الى تضحيات وجهود وصبر. بل كان الامر ــ في بعض ا لأحيان ــ يتجاوز المعارضة السلبية الى محاولة كسب مواقف سياسية وتأليب الناس على الأوضاع بدغدغة رغبتهم في توسيع دائرة الحاجات لتشمل الكماليات وإرضاء رغباتهم في تنمية العادات الاستهلاكية للمنتجات المستوردة. وواضح أن هذا الموقف لا ينسجم على الاطلاق مع المحاولة الجادة لطرح بديل اسلامي لأزمة التغريب وتدريب الأمة على جدية وأخلاقيات هذا البديل.

ونظراً لبعد الدعاة والحركات الإسلامية أو ابعادهم عن المشاركة والتفكير الجاد في المشكلات العامة وانشغال اصحاب الامكانيات بإدارة اعمالهم وتجارتهم الخاصة، يخشى المرء أن يقرر أن الكثير من المشاركين أو المنتسبين الى العمل الإسلامي لم يعد قادراً أو مؤهلا للتفكير في حل أزمة الكفاية و تدريب الأمة على مقتضياتها.

وما نريد إثباته في هذا الدليل هو التنبيه للمشكلة والحث على التفكير الجاد بحلها على المستوى الفردي و الجماعي وتعديل الممارسات اليومية و دفعها باتجاه تلبية الحاجات من خلال الامكانيات المحلية.

ومن المفيد أن يفكر الشباب المسلم بطريقة عملية واقعية في هذا السبيل، وذلك بأن يطرحوا على انفسهم اثناء دراستهم وتخصصهم السؤال التالي: ما هو الدور الذي ينتظرني في بلدي عند انتهاء دراستي وكيف يمكن تطبيق الخبرات المكتسبة في الدراسة والاختصاص في الظروف الواقعية التي تسود البلاد.

وعند ذلك لا شك أن الدارس سيجد من خلال التفكير الجاد في هذا الاتجاه ما يزيد في قدرتـــه على امتلاك الخلفية النظرية والعملية التي تضعه على طريق المشاركة في حل مشكلة التغريب والإعداد لمشروع إسلامي لتأمين الكفاية وامتلاك خلفيتها العلمية والثقافية والاخلافية.

ولا بد الى الاشارة الى أن فشل الحركة الإسلامية في طرح مشروع للنهضة ينطلق من الامكانيات والخبرات المتواجدة على النطاق الشعبي والمحلي في أدنى مراتبها، يحرم الأمة من الفرص المتوفرة للبدء برحلة مقاومة التغريب واعادة الثقة بجدية البديل الإسلامي وجدارته الأخلاقية لدفع الأمة في طريق الكفاية والإستقلال الحقيقي.

علوم النفس والاجتماع

عرفت الثقافة الإسلامية كتابات عميقة ومفيدة عن النفس البشرية وعيوبها ومداخلهاواصلاحها وتزكيتها، وذلك في اطار الكتابات التربوية التي نقلت عن المتصوفة والمربين.

وكذلك عرفت الثقافة الإسلامية بعض الكتابات عن علم الاجتماع وقوانين العمران وما يتصل بحياة الجماعات البشرية. ويعتبر ماكتبه ابن خلدون في مقدمته أوضح وأدق ما عرف في الثقافة الإسلامية في هذا الباب. والناظر في الدراسات التربوية لامثال الغزالي والمحاسبي والقشيري والسكندري وابن القيم وغيرهم يلاحظ بوضوح أن المعاني العميقة التي يسجلها هؤلاء الائمة هي تأملات وخواطر تغوص في النفس البشرية بروح شفافة وبصيرة شرعية فهمت عن الله بعض اسرار النفس ومعاني تزكيتها وترقيتها في معارج الكمال الانساني، وذلك من خلال التجربة الشخصية والمعاناة الذاتية.

وكذلك فإن ما سجله ابن خلدون في مقدمته عن قوانين العمران والنشاطات الانسانية المختلفة هو حصيلة مشاهدات وتأملات ذاتية استعمل فيها ذكاءه وألمعيته في محاولة كشف بعض السنن والقوانين التي ادرك فكرة ثباتها واستقرارها من خلال الفهم الشرعي والثقافة الإسلامية الواسعة.

وقد توقف العطاء الفكري للمسلمين عند ما تركه الأئمة الأقدمون في هذا الباب، حتى إذا جاء العصر الحديث وأدرك المسلمون تخلفهم في العلوم وتخلفهم في فهم سنن الله في الكون بعد الغزو الاستعماري الغربي لديار المسلمين، اتجه المسلمون الى الاهتمام بتحصيل العلوم والمعارف على نحو ما عرضناه في الفصل السابق. ويبدو أن الخطأ المنهجي الذي اتسمت به توجهات المسلمين لتحصيل العلوم التطبيقية والذي أدى الى البعد عن تحقيق الكفاية والعجز عن حل المشكلات اليومية، قد أدركهم في تناولهم لعلوم النفس والاجتماع فكانت حصيلة ما نقلوه من علوم النفس والاجتماع خليطاً غير متجانس وغير متناسق يعوزه المنهج والبصيرة. وكان العجز عن فهم المنهجية التطبيقية لعلوم النفس والاجتماع سبباً لمحاولات نقل فجة من البيئة والثقافة الغربية الى البيئة الإسلامية، مما حدا المفكرين والكتاب المسلمين الى تبني موقف الرفض المطلق لمعطيات ومنهجية علوم النفس والاجتماع الغربية باعتبارها علوماً تنطلق من فهم غربي وبيئة ثقافية غربية تفهم النفس البشرية وتتعامل معها في إطار فكري وثقافي غريب وبعيد عن الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية، فإذا ساغ نقل العلوم الطبيعية عن الغربيين فليس بسائغ نقل ما يتعلق بموضوع الدين في أصل تنزله، هداية للنفس وبيان حقيقتها ومركزها في الكون وعلاقتها بربها والكائنات من حولها.

وهنا لا بد من ذكر مقدمة نافعة عن العلوم وطبيعتها:

تعكس العلوم نفسها على ثلاثة مستويات:

- مستوى النظريات الكلية الكبرى ــ الطرح الفلسفي
- مستوى الدراسات النظرية والتطبيقية ــ الطرح الدراسي \ الجامعي
- مستوى الدراسات العملية والتسويقية ــ الطرح التجاري

وتتأثر العلوم ــسواء منها العلوم التطبيقية أو العلوم الانسانيةــ بالبيئة الثقافية والحضارية في طرفي مجالات طرحـــها، أعني في طرحها الفلسفي وطرحها التجاري بالخصوص. ويجب الوعي عند تناول العلوم الى المجال الذي يتناولها، فالطرح الفلسفي الغربي مرفوض جملة وتفصيلا، فالعلوم التطبيقية تقوم على الإلحاد والمادية، والطرح التجاري مرفوض كذلك لأنه يستخدم العلوم لإرضاء شهوات أو رغبات أو حاجات تنبع من الكيان الثقافي، ونقله على علاته يساهم بشكل كبير في تدمير ثقافة الأمة وموازينها للضروري وتقييمها لاولويات الاهتمام والانفاق.

أما الطرح الدراسي الذي يلاحظ ويصف ويقيس الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية وذلك قبل أن ينتقل الى مرحلة التفسير والاستنتاج ــوالتي تتعلق حتماً بالطرح الفلسفي أو التجاريــ فليس هناك من مانع لنقله والاستفادة منه، فإذا كنا لا نرفض القوانين الطبيعية في الفيزياء والكيمياء، وان كان من مقتضيات أو مقدمات هذه القوانين عند الغربيين الالحاد والمادية، كذلك فإن مخالفتنا لاصول الطرح الفلسفي لعلوم النفس والاجتماع عند الغربيين يجب أن لا تحملنا على رفض القوانين والسنن التي اكتشفتها ابحاث هذه العلوم. وبهذا التمييز بين العلوم وإطارها الثقافي تمكن الاستفادة من العلوم الاجتماعية التي رغم عواهنها خطت خطوات هائلة في تنظيم وتعميق المعرفة باتجاه الموضوعية والدراسات الحقلية. فلم تعد هذه العلوم نظريات مجردة انقدحت في أذهان بعض العلماء، بل أصبحت تعتمد على الدراسات والاحصائيات والملاحظة الحقلية التي تتابع وتناقش مختلف مجالات النشاط الانساني والدوافع وترتيبات المعاش والعوائق والحوافز والترتيب السليم للعلاقات الانسانية والتي لا بد من هضمها هضماً إسلامياً وإخراجها بشكل يتناسق مع معطيات الثقافة الإسلامية وواقع البيئات الإسلامية حتى تؤتي أكلها وتمكن الاستفادة منها.

أما النقل لمعطيات وتطبيقات هذه العلوم كما هي في إطارها الثقافي الغربي فلا شك أن آثاره المدمرة تفوق ما تعاني منه الأمة من جراء الخطأ المنهجي الذي تناولت به العلوم التطبيقية. أما الرفض المطلق لمعطيات علم النفس والاجتماع بحجة المعارضة والمنافسة للفكر الإسلامي فلا أظن أن ذلك سيأتي بخير إلا أن يكون اعترافاً منا بالعجز عن النقل الواعي الذي يستحضر معطيات الثقافة الإسلامية ويستطيع أن يكمل عملية الهضم الثقافي على بصيرة ووضوح.

وإذا عدنا الى ما ذكرناه عن ابن خلدون وكيف استنتج من تدرج الكائنات وتسلسلها من البساطة الى التعقيد والتركيب ما أثبت به الوحي والنبوة، في الوقت الذي توصل به داروين وأتباعه من الملاحظات نفسها الى نفي التدبير وإنكار الصانع، فإن هذا المثال يبين بوضوح أن المسلم لا يرفض تفاصيل المشاهدات وما أخرجته المخابر والمعامل والاحصاءات، ولكنه لا يترك أمر الاستنتاج والتحليل لغيره، فللمسلم منهج آخر في فهم الطبيعة والكون والحياة، وهذا هو عين ما نريد إثباته في قضية العلوم الاجتماعية والنفسية.

الآداب و الفنون

الجمال هو عنصر أصيل في بناء الكون ، و الإحساس بالجمال هو فطرة إنسانية لا بد من رعايتها و تزكيتها .

فإلى جانب الإهتمام بالمنافع و إبراز جانب التسخير و حكمة الإرتفاق و الإستعمال في المخلوقات ، إهتمّ القرآن الكريم ببيان أوجه الجمال في الخلق و أمر بالنظر إلى ما وراء الإستعمال و الإنتفاع إشارة إلى أصالة الإحساس بالجمال في شريعة الفطرة التي لا تترك جانباً من جوانب الحياة البشرية السوية إلا و اعترفت به و أولته العناية و أدخلته في مدلول الهداية و مفهوم الدين و التدين . فالجمال و الإحساس بالجمال مدخل فطري إلى النفس الإنسانية نجده على صفحات القرآن و هو يصف الكواكب و النجوم بأنها زينة ، يصف الجبال و ألوانها ، و يشير إلى الأنعام و ما في حركاتها من جمال ، و يوجه النظر إلى الأشجار و الثمار و طلعها و ينعها و زينتها .

فالجمال الذي يدل و يشير إلى الإتقان و الإحسان و يغطي المعنى الإستعمالي و الوظيفي للأشياء بمظهر يتجلى فيه الجلال و الجمال و التناسق هو أمر مطلوب و مرغوب يلاحظه المؤمن و هو يتأمل قول الرسول صلى الله عليه و سلم : إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة و إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة و ليحد أحدكم شفرته و ليرح ذبيحته . فتسخير الأنعام لطعام الإنسان أمر استعمالي لابد أن يشمله الرفق و الإحسان الذي يزين الحياة و يزيد نداوتها .

و من ناحية أخرى تعتبر الآداب و الفنون هي الوسائل التي يعبر الإنسان من خلالها عن إحساسه بالجمال و الإحتفال به .

فليس في أصل معنى الإحتفال و الإنفعال بالجمال أية مشكلة أو مصادمة لهداية الدين و لكن المشكلة تكمن في التوازن الصعب بين ميل النفس البشرية إلى الإحتفال بالجمال بعيداً عن الضوابط و القيود التي يستلزمها اعتبار أولوية القيم عند التعامل مع عناصر و مكونات النفس البشرية.

فالنظافة و الطهارة فطرة إنسانية و جمال مرغوب، و البعد فيها عن الإسراف و التبذير إطار أخلاقي و قيمي لوضعها في إطار إجتماعي متوازن . و زينة اللباس و كل ما يتصل بها من جمال في الحُلي و العطر و الألوان ، فطرة إنسانية يشترك الناس في طلبها و الإهتمام بها و يبقى التحدي الذي يواجه النفس البشرية كيف تستجيب لهذه القضية الفطرية و لا تقع في الكبر و الفخر و الخيلاء أو أن لا يطغى الإهتمام

بإبراز الجسد و مفاتنه على الوجه الإستعمالي للباس . و ينسحب هذا الأمر على ما يتخذه المرء من أبنية و عمائر و مرافق ، فالزينة و الجمال فيها مطلوب و مرغوب و يكمن الإبتلاء في البعد في هذا كله عن الإسراف و عن التعالي و الكبر و الخيلاء و البعد عن تحطيم البعد الإنساني في الفضاء الإجتماعي و البعد عن فرض ثقافة الإقصاء و النبذ لشرائح من الأمة و إعطاء فرصة ممكنة للتواصل بين شرائح المجتمع و عناصره مع رعاية لحمة إجتماعية متعاونة متكافلة .

و تسجيل التجارب الشعورية و خلجات العواطف و الإنفعالات بلغة مؤثرة موحية (و هو التعريف الذي اعتمده سيد قطب رحمه الله للعمل الأدبي) أمر إنساني يتبادل الناس عطاءه و إبداعاته و يحتفلون بها عبر الثقافات و الحضارات . و هنا أيضاً يظل التحدي كامناً في ضبط مبالغات الإنفعال بالقيم و كبح جماح المشاعر بالنظر إلى العواقب .

فالشعر و البيان متعة و سحر يزيد الحياة بهجة و أنساً ما لم تصل مبالغات الشعر إلى الكذب و الجنوح إلى الخبال و الهذيان . و الإحتفال بعواطف الحب و الشوق أمر فطري يبعث في النفس راحة و طرباً ما لم يبتعد عن رفرفات المشاعر و نداوة و سمو العواطف ليكون تسجيلاً لفحيح شهوة أو مبالغة في التأكيد على لحظة نزوة و متعة .

و من هنا لا بد من الرجوع إلى العرف و ما يشيع في كل بيئة من معايير لنرى مدى الإرتباط بين بعض التصرفات و الممارسات و بين القيم في تلك البيئة . ففعل واحد قد يحمل معان مختلفة و ارتباط بقيم مختلفة من بيئة إلى أخرى . و من هنا ميـــز الفقهاء في الحكم على الأفعال بين ما هو حرام لذاته – لإحتوائه على الضرر و المخالفة للمقاصد – و بين ما هو محرم لغيره لإرتباطه – عرفيا – بما يخالف القيم و الأخلاق . فإذا زال هذا الإرتباط العرفي بما يخالف ارتفع حكم التحريم . و أقرب الأمثلة على ارتباط الحكم بالعرف مسألة الغناء و المعازف .

فارتباط الغناء و المعازف بمجالس الخمر و اللهو المحرم و المومسات ، أمر كان معروفاً في البيئة العربية . و لذلك لا نجد غرابة في استنكار الغناء و العزف و الضرب بالدف لارتباطه العرفي بتلك الممارسات المحرمة . فإذا تحول العرف و لم يعد هذا الإرتباط بالفعل المحرّم متلازماً ، انتقل الحكم إلى الإباحة الأصلية .

و في كل ثقافة و حضارة يدرك الناس ببساطة الفرق بين ما يرتبط بمعان سامية مقبولة محترمة و بين ما يرتبط بأنواع السلوك الهابط . فالموسيقى العسكرية أو أهازيج الأعراس أو أناشيد المساجد أمر يرتبط بسلوك اجتماعي لا يقدح في مروءة أو خلق و يجب أن لا نخلط في الحكم عليها بينها و بين الأغاني أو الموسيقى التي تثير الشهوات و تلهب الغرائز أو تعرض المرأة سلعة رخيصة و جسداً مبتذلاً يمسخ إنسانية المرأة و كرامتها . و بين هذين القطبين طيف واسع من الحالات لا بد من التأني في الحكم عليها .

و على كل حال لا بد من تقرير قاعدة مهمة للحكم على التصرفات و ذلك بحسب كون التصرف جزئياً عارضاً غير دائم و لا مستمر أو كون التصرف كلياً دائماً مستمراً . فمن المعلوم أن أمراً مباحاً حلالاً مثل التنزه في الحدائق و البساتين أو التلذذ بأصوات الطيور و العصافير لو استغرق من المرء وقتاً طويلاً من عمره و برنامج حياته لنسب إلى التفريط و قلة العقل بينما لو مارس المرء هذا الفعل أحياناً فلا حرج و لا لوم و لا تثريب .

فالإهتمام بالفنون و الآداب و الجماليات و الطرب عندما يـــنضبط بالقيم و الأخلاق و معالي الأمور ، شيء مباح بمعنى أن لا حرج في التمتع بها بمعناها الجزئي كمحطة الإستراحة على طريق السفر الطويل و ليس مكاناً للإقامة . فالحياة الجادة بواجباتها و أعبائها لا تسمح بكثير من الوقت للخوض و اللعب إلا عند أهل البطالة و الفراغ الذين لا يحسون بوقع الزمن و لا يحسنون الإستفادة منه في إصلاح دنيا أو تزكية دين .